أساطير هيرُودوت

بقلم

أ. ج. ايفانس

ترجمة

شفيق فريد

الكتاب: أساطير هيرُودوت

الكاتب: أ. ج. ايفانس

ترجمة : شفيق فريد

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

ايفانس ، أ. ج.
أساطير هيرُودوت/ أ. ج. ايفانس, ترجمة : شفيق فريد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٦ – ٢٦ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٨٨٦٥ / ٢٠٢٠

أساطير هيرُودوت

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الفصل الأول

أسطورة أيو وجايجس

فيما يلي أبحاث هيردووت، وهو ينشرها راجياً بذلك المحافظة على ذكرى ما فعله عظماء الرجال، والحيلولة دون حرمان الأعمال العظيمة التي أتاها اليونانيون والبرابرة مما تستحقه من تمجيد، وتسجيل الأسباب التي أدت إلى حدوث المنازعات بينهم.

يقول ثقاة الفرس في التاريخ أن الفينيقيين بدأوا النزاع؛ فبعد أن هاجروا إلى البحر الأبيض المتوسط، واستقروا في الأجزاء التي يقيمون بها الآن، بدأوا يقومون بمغامرات تمثلت في رحلات طويلة، حملوا فيها سفنهم بسلع آشور ومصر. ونزلوا إلى البر في أماكن كثيرة على الساحل، وفي بقية بلاد آرجوس التي كانت أعظم الولايات التي تدخل الآن في دولة هيلاس. وهناك عرضوا سلعهم، وتبادلوا التجارة مع الوطنيين لمدة خمسة أيام أو ستة. وبعد أن انتهوا تقريباً من بيع كل ما كان معهم، أقبل إلى الساحل عدد من النساء وكانت معهن أيو ابنة الملك إناخوس. ووقفت النساء عند مؤخرة السفينة وانهمكن في الشراء، وفجأة أطلق الفينيقيون صيحة عظيمة، وانقضوا عليهن، فهرب منهن عدد بينما قبض الفينيقيون على

الباقين وأخذوهن معهم، وأبحروا إلى مصر. وهكذا جاءت أيو إلى مصر، وكان ذلك إيذاناً ببداية سلسلة من الأعمال المعادية بين الفريقين.

وفي مرحلة أخرى، نزل بعض اليونانيين في تاير على ساحل فينيقية، واختطفوا أوربية ابنة الملك وبذلك انتقموا لابنة ملكهم ولكنهم ارتكبوا عملا عدائياً آخر فيما بعد، فقد بعثوا بسفينة حربية إلى آي مدينة كوليخيس على نهر قاسيس، وبعد أن أتمت السفينة العمل الذي جاءت من أجله، اختطف ملاحوها "ميديا" ابنة ملك البلاد، فأوفد الملك رسولا يطالب بإعادة ابنه ودفع التعويض، ولكن اليونانيين أجابوا بأنه مادام الفينيقيون لم يدفعوا لهم تعويضا عن اختطاف أيو فإنهم لن يدفعوا شيئاً..

ويقول الرواة أنه، في العقد التالي، قرر الإسكندر ابن بريام، أن يتخذ له زوجة يختطفها من بلاد اليونان بعد أن اقتنع بأنه مادام اليونانيون لم يقدموا أية ترضية عما ارتكبوه من أعمال عدوانية، فإنه لن يضطر إلى تقديم أية ترضية. واختطف الإسكندر فعلا هيلين اليونانية وعندئذ قرر اليونانيون أن يبدأوا بإرسال وفد يطالب بإعادة الأميرة ودفع تعويض، ولكن الاسكندر رفض الطلب بدعوى أن اليونانيين سبق أن قاموا بمغامرات مماثلة ولم يدفعوا تعويضات عنها.

وهكذا تكررت حوادث خطف النساء بين الفريقين، إلا أن الفرس كانوا يلقون اللوم على اليونانيين لما وقع بعد ذلك، لأنهم أرسلوا جيشاً إلى آسيا قبل أن يقوموا هم بأي هجوم على أوربا. أما خطف النساء فكان في

نظرهم أعمالا فردية لا تستوجب نزاعاً حربياً، وبالأخص لأن هؤلاء النساء لم يبدين اعتراضا على خطفهن، ولكن اليونانيين لم يوافقوا على هذا الرأي وحشدوا جيشاً جراراً غزاً آسيا وقضى على مملكة بريام، ومنذ ذلك الحين والفرس يعتبرون اليونانيين أعداءهم الألداء، نظراً لأنهم كانوا يعتبرون آسيا بمختلف قبائلها البربرية ملكا لهم.

تلك هي القصة التي يسردها الفرس عن هذه الأمور، وهم يرجعون عداوتهم لليونانيين إلى هجومهم على طروادة. أما قصة الفينيقيين عن أيو فتختلف عن قصة الفرس، فقد أنكروا أنهم استخدموا أي عنف لنقلها إلى مصر. وأنها– بعد أن صادقت ربان السفينة أثناء رسوها في أرجوس خشيت أن يفتضح أمرها بعد أن حملت سفاحاً، وقبلت الرحيل معه إلى مصر، ولكننا لن نتعرض لهذا الموضوع بالتأييد أو النفي.

وانتقل عرش ليديا من أسرة هراكليد إلى أسرة كرديوس بالطريقة التي سنسردها الآن.. كان الملك كاندوليس، ملك سردلين، يعرف عند اليونانيين باسم مايرسيلوس.

واتفق أن كان كاندوليس هذا مدلها بحب زوجته؛ وكان يعتقد أنها أجمل امرأة في العالم وأدى هذا الوهم إلى نتائج غريبة، إذ كان في حرسه الخاص رجل اسمه جايجس ابن داسيلوس وكان كاندوليس يحب هذا الشخص ويعهد إليه بالتصرف في أهم الشئون ويصطفيه دون غيره من رجال حاشيته ولكنه لاحظ أن صفيه لا يأبه لجمال زوجته. فأغاظه ذلك،

ولما كان القدر قد كتب على هذا الملك أن يموت موتة بشعة، فقد قال له ذات يوم "إنني ألاحظ أنك لا تهتم بجمال زوجتي، لكن لما كانت آذان الرجال لا تصدق مثل أعينهم. فعليك أن تدبر وسيلة تمكنك من رؤيتها عارية" وهنا صاح جايجس مستنكراً اقتراح الملك، ولكن هذا أصر على رأيه برغم ضراعة جايجس إليه ليعفيه من هذه المهمة البغيضة إلى نفسه، وكان جايجس يخشى أن تكون في الأمر مؤامرة، فقال له الملك: "تشجع يا صديقي ولا تظن إنني أستدرجك إلى فخ منصوب؛ وثق أنك لن تضار إذا فعلت ما أطلبه منك لأن زوجتي لن تعلم عن الأمر شيئاً، فسأوقفك خلف باب الغرفة التي ننام فيها وهو مفتوح؛ وعندما أدخل لأستريح، فإنها ستتبعني، وهناك مقعد قريب من المدخل ستضع زوجتي فوقه قطع ثيابها قطعة بعد أخرى بعد أن تخلعها وبذلك يمكنك أن تتأمل جمال جسدها على مهل، وحينما تتحرك مبتعدة عن المقعد مديرة لك ظهرها، يمكنك أن تتسلل مبتعداً بغير أن تراك.

وأسقط في يد جايجس، ولم يملك غير الإذعان.

إلا أن الحظ السيئ شاء أن تلمح الملكة جايجس بعد أن تجردت من ثيابها، ولكنها كانت امرأة أريبة داهية، فلم تظهر لزوجها أية علامة تدل على أنها فطنت لما حدث، ولكنها أصرت على الانتقام منه. فإذا كان الصباح، وخرج الملك لتصريف شئون دولته، استدعت الملكة جايجس وخيرته بين أن يقتل زوجها ويتزوجها، أو أن تقتله في الحال،

وعبثا حاول جايجس أن يثني الملكة عن عزمها؛ ولما تبين له أنها مصرة على رأيها، اختار الحل الأخير. وحينما جاء الملك إلى مخدعه في تلك الليلة. كانت الملكة قد أخفت جايجس وراء الباب بعد أن أعطته خنجراً حاد النصل. وعندما استغرق الملك في النوم. خرج جايجس من مخبأه وأغمد الخنجر في قلب الملك. وبذلك آل إليه ملك كاندوليس وزوجته.

الفصل الثاني

أسطورة آريون

كان برياندر ابن كايبسلوس طاغية كورنثا، ويقال أن حدثاً غريبا وقع في عهده؛ ويقول الرواة أن آريون من ميثايمنا كان يجيد العزف على القيثارة بدرجة لا يفوقه أحد فيها، وأن دولفينا حمله على ظهره إلى تانياروم.

كان آريون قد عاش أعواما طويلة في بلاد برياندر، عندما غلبه الحنين إلى إيطاليا وصقلية، ولما كان قد أصاب كثيراً من الثراء في تلك البقاع، فقد قرر أن يعبر البحر إلى كورنثا، فاستأجر سفينة كان بحارتها من أهل كورنثا ظنا منه أنه يستطيع الوثوق بهم؛ وبعد أن أبحرت السفينة من تارنتم، وخرجت إلى عرض البحر، تآمر البحارة على آريون وقرروا إلقاءه في عرض البحر، والاستئثار بثروته؛ وحينما اكتشف آريون مؤامرتهم راح يتضرع لهم وعرض عليهم الاستيلاء على كل ما معه والإبقاء على حياته، ولكنهم رفضوا، وخيروه بين أن يلقي بنفسه في اليم، أو أن يقتلوه...

واختار الموسيقى الحل الأول، وجلس عند مقدم السفينة، وأمسك بقيثارة، وراح يوقع عليه لحنا رائعاً. وعندما انتهى من توقيع اللحن، ألقى

بنفسه في الماء وهو يرتدي ثيابه الكاملة.. واستمرت السفينة في طريقها إلى كورنثا..

وتقول الأسطورة أن دولفنيا حمل آريون فوق ظهره "وذهب به إلى كورنثا، وهناك ذهب لمقابلة الملك برياندر، وروى ما حدث له، فلم يصدقه الملك أول الأمر، واحتجزه كي لا يهرب، وترقب وصول البحارة في لهفة، فلما وصلوا، استدعاهم إليه، وسألهم عن أنباء آريون، فقالوا إنهم تركوه في إيطاليا متمتعاً بصحة جيدة، وعندئذ ظهر آريون أمامهم بنفس الهيئة التي كان عليها حينما ألقى بنفسه في البحر، فبهت البحارة وأدركوا أنهم من الهالكين، ولكنهم اضطروا للاعتراف بإثمهم..

الفصل الثالث

أسطورة سولون

عندما مات الياتس خلفه ابنه كرويسوس على العرش وكان في الخامسة والثلاثين من عمره، وكانت أفسيوس أول مدينة يونانية تعرضت لهجومه عليها. وعندما ضرب حصاره على هذه المدينة وهب أهلها مدينتهم للإلهة ديانا وذلك بأن مدوا حبلا من سور المدينة إلى معبد هذه الآلهة الذي كان يبعد سبعة فورلنح عن المدينة القديمة، وقيل أنهم كانوا أول من هاجمهم اليونانيين، وبعد ذلك تذرع كرويسوس بشتى المعاذير لغزو أيونيان وأيوميان، إلى أن أصبح سيداً على جميع المدن اليونانية في آسيا وأرغمها على أن تدفع له الجزية، وبعد ذلك بدأ يبني سفناً استعداداً لغزو الجزر. وعندما استكمل استعداداته لهذا الغرض. وفد بياس من برينيه فوضع حداً لمشروعاته، ذلك لأن الملك سأله، وكان هذا الرجل قد عاد أخيراً من سرديس، عما إذا كانت هناك أنباء من اليونان، فأجاب الرجل أن سكان الجزر يجمعون عشرة آلاف جواد استعداداً للقيام بحملة ضده وضد عاصمة ملكه، وخيل لكرويسوس أنه يقول الصدق، فصاح: هل وضعت الآلهة في أذهانهم أن يهاجموا أبناء ليديا بالفرسان!؟" فأجابه بياس: "يبدو أيها الملك أنك كنت شديد اللهفة على لقاء سكان الجزر راكبي الجياد، ولكنك تعلم حق العلم ماذا سينتج عن ذلك؟!".

وصمت الملك لحظة، ثم قرر العدول عن الحملة، وتوقف عن بناء السفن، وأبرم معاهدة تحالف مع أيويني الجزر.

وعندما أضيفت جميع هذه الفتوحات إلى الإمبراطورية الليدية، وبلغ رخاء سرديس ذروته، جاء حكماء الإغريق الأحياء في ذلك الحين الواحد تلو الآخر، ومن بينهم سولون الأثيني.. وكان سولون قد غادر أثينا منذ عشر سنوات مدعياً أنه يرغب في رؤية العالم، ولكن الواقع أنه أراد أني تجنب نقض القوانين التي وضعها للأثنيين، بناء على طلبهم، وتعهدوا له بعدم نقضها بغير موافقته، لأنهم تعهدوا بقبول الحكم على هدى هذه القوانين لمدة عشرة أعوام.

وخلال هذه الفترة، زار سولون مصر، وجاء إلى بلاط أمازيس، كما زار كرويسوس في سيرديس، فاستقبله كرويسوس كزائر، وآواه في قصره الملكي، وفي اليوم الثالث أو الرابع لوصول سولون، أمر الملك خدمه بأن يطلعوا الضيف على كنوزه وما تميزت به من فخامة وعظمة، وعندما تم لسولون رؤيتها، ألقى عليه كرويسوس السؤال التالي:

"أيها الغريب القادم من أثينا، لقد سمعنا الشيء الكثير عن حكمتك وأسفارك طلباً للمعرفة والرغبة في رؤية العالم، ولذلك فإنني أود أن أسألك من هو أسعد رجل فيمن رأيت؟".

وكان السبب الذي من أجله ألقى الملك هذا السؤال على ضيفه أنه كان يعتقد أنه أسعد الناس. ولكن سولون أجابه بلا ممالأة: إنه تيلوس من أثينا يا مولاي".

وبهت كرويسوس لما سمع، فسأل بحدة: "ولماذا تعتبره أسعد الناس؟".

فأجاب الضيف: "لأن بلاده ازدهرت في أيامه، ولأنه أنجب أولادا أخياراً على حظ كبير من الجمال وعاش ليرى أحفاده حتى أصبحوا رجالا، وعلاوة على ذلك فإنه مات بعد ذلك ميتة مشرفة إذ نشبت معركة بين أهل أثينا وجيرانهم بالقرب من اليوسس، فخف لنجدة بني وطنه، وأنزل الهزيمة بالعدو، ولكنه سقط صريعاً في ساحة الشرف، فدفنه مواطنوه في حفل مهيب بأجلي مظاهر التكريم".

وهنا أعاد كرويسوس سؤال سولون عمن يعتقد أنه يتلو تيلوس في السعادة. فأجاب سولون: "إنهم كليوبس وبيتو من جنس أجريف. كان ثراؤهما على قدر حاجتهما، ولكنهما كانا يتمتعان بقوة جسمانية خارقة جعلتهما يفوزان بكثير من الجوائز في المباريات الرياضية، ويقال أنه أقيم احتفال عظيم تكريماً للآلهة جونو في أرجوس، وكان من الضروري أن تذهب أمهما إلى هذا الحفل راكبة عربة، وإذ تخلف الثوران اللذان كان من المقرر أن يجرا المركبة إلى الحفل نظراً لتأخرهما في العمل في الحقل؛ وإذ خشي الابنان أن يتأخروا جميعاً عن الحفل؛ قاما بجر المركبة مسافة خمسة وأربعين فورلنج حتى وصلا بها إلى المعبد، وقد شاهد فعلتهما الرائعة تلك

جميع المصلين.. وانتهت حياة الابنين أحسن نهاية يمكن أن يطمع فيها إنسان، وبذلك أبدى الله عز وجل أن الإنسان يمكن أن يحظى بالشرف في الموت أكثر مما يحظى به في الحياة. ذلك لأن الأم وقفت أمام تمثال الآلهة وتضرعت إليها أن تبارك ابنيها اللذين كرماها أجمل تكريم، بينما أصر المصلون على إنشاء تمثالين للابنين اللذين أظهرا نبلا وتفانياً في الإخلاص لأمهما لم يسبق له مثيل، وبعد أن أقيم التمثالان وهبا لمعبد دلفي..

وما كاد سولون يفرغ من قصته حتى صاح كرويسوس بغضب: إذن فأنت لا ترى أنني رجل سعيد أيها الغريب القادم من أثينا.. أنك لم تحاول حتى مساواتي بالرعايا.

فأجاب سولون: لقد سألتني سؤالا عاما يا مولاي، ولهذا أجبتك بما أراه عين الصواب.. كان سؤالك عن رجل، ولما كنت قد بلغت السبعين من العمر فقد تجمعت لي تجارب كثيرة بحيث أصبح الاختيار والمفاضلة أمرين من الصعوبة بمكان؛ وإني اعتبر أن سبعين عاماً هي الحد الأقصى لعمر الإنسان، لأن عدد الأيام التي تشتمل السبعون عاماً عليها هو ستة وعشرون ألفاً ومائتان وخمسون يوما، تمر بالإنسان في كل يوم منها تجارب تختلف عن جميع التجارب التي تمر به في غيره. ومع إنني عرفت أنك على حظ كبير جداً من الثراء، وأنك ملك على شعوب كثيرة، إلا أنني لا أملك إجابة على السؤال الذي ألقيته علي، ولن أملك هذه الإجابة إلا حينما أعلم أنك ختمت حياتك سعيداً، لأن من يملك أوسع الثراء لا يكون أقرب للسعادة من الشخص الذي لا يجد غير قوت يومه، اللهم إلا إذا

اقترنت ثروته بحسن الحظ فاستطاع أن يستمتع بكل ما تحققه الثروة إلى يوم يموت؛ لأن كثيراً من أصحاب الثروات تنكر لهم الحظ، بينما أدار الحظ وجهه إلى غيرهم ممن لا يملكون أي ثراء والخلاف بين الفريقين واضح، فصاحب الثروة يستطيع أن يشبع رغباته، وأن يواجه النكبات المفاجئة، أما الشخص معدوم الثراء فلا يستطيع احتمال هذه الكوارث (ولو أن حظه الحسن يجنبه إياها)، ولكنه يتمتع بالبركات التالية: صحة طيبة، وحظ حسن، وبركة في الأولاد، ومحبة من الناس؛ فإذا انتهت حياته نهاية طيبة، فإنه ولا شك رجل سعيد. بيد أنه من النادر أن تتجمع هذه الصفات في رجل واحد، كما أنه لا توجد دولة واحدة تملك بداخلها كل ما تحتاج إليه، ولهذا فإن أسعد دولة هي التي تملك معظم احتياجاتها. وهكذا ترى أنه لا توجد دولة ولا يوجد رجل مكتمل من جميع النواحي؛ ومن ثم فإن الإنسان الذي يتجمع له أكبر عدد من المزايا، ويحتفظ بها حتى يموت، فإنه– في رأيي– الرجل السعيد.

كان هذا هو الحديث الذي ألقاه سولون على كرويسوس. ولهذا ضاق الملك به. وعندما استأذن في الرحيل ودعه بجفاء.

الفصل الرابع

قصة ادراستوس

بعد رحيل سولون، انتقم الله من كرويسوس انتقاما رهيباً؛ ذلك أنه حلم ذات ليلة حلما كشف له النقاب عن النكبة التي خبأها له القدر في شخص ابنه. فقد كان لكرويسوس ابنان: أحدهما أبكم أصم، والآخر شاب لامع اسمه أتايس. وقد رأى كرويسوس في الحلم أن ابنه أتايس سيموت بطعنة من سلاح حديدي. وافزع الحلم الملك، وفي التو أرغم ابنه على الزواج، وبعد أن كان أتايس يتولى قيادة الجيش في الميدان، حظر الملك عليه الاشتراك في أية معارك، كما نقل جميع الأسلحة التي كانت تستخدم في الحروب من مساكن الذكور ووضعها في غرف النساء خشية أن تسقط أحداها فتقتل ابنه.

وبينما كان الملك يعد العدة لزواج ابنه، جاء إلى سرديس رجل لوث يديه بالدماء. وكان هذا الرجل من أسرة الملك في برايجيان، وقدم نفسه للملك كرويسوس وتضرع له أن يطهره من الإثم الذي ارتكبه طبقاً لتقاليد بلاده. وكانت طريقة الليديين في التطهير شبيهة بطريقة اليونان، فأجابه كرويسوس إلى طلبه. وبعد أن تمت عملية التطهير، طلب الملك من زائره أن يكشف له عما خفي من أمره، فأجاب الضيف: "مولاي، إنني ابن جوردياس ابن ميداس، واسمي ادراستوس. وقد قتلت أخي غير متعمد،

فطردني أبي من البلاد، وبذلك فقدت كل شيء، وجئت إليك لاجئاً" فقال الملك: "إنك ابن بيت صديق لي، ولهذا فإنني أرحب بك وستقيم في منزلي ما طابت لك الإقامة، فهون عليك ولا تفكر فيما مر بك" ومنذ ذلك اليوم عاش ادراستوس في قصر الملك كرويسوس.

واتفق أن ظهر في تلك الأثناء ذئب متوحش في مايسيان أو ليمبوس وراح هذا الذئب يعيث في الأرض فساداً ويفتك بأهلها، فأوفدوا رسلا إلى الملك كرويسوس يناشدونه العون في القضاء على هذا الوحش.

والتمسوا أن يكون ابنه الباسل على رأس البعثة. ولكن الملك تذكر الحلم المروع فرفض إيفاد ابنه، وإن قبل إرسال جماعة من خيرة مقاتليه لأداء هذه المهمة.

وحينما سمع أتايس ذلك احتج على أبيه وأصر على الذهاب، فلما صارحه أبوه بالحلم الذي رآه، قال الابن أنه يقدر موقف أبيه حق قدره ولكنه أردف قائلا أنه لن يستعمل أية أسلحة حديدية في مطاردة الذئب وبعد جدل كثير وافق الملك على ذهاب ابنه مع الوفد، ولكنه استدعى ادراستوس، وبعد أن ذكره بالجميل الذي صنعه معه طلب منه مرافقة ابنه ومنع أي أذى عنه.. إلا أن سوء الحظ، أو قل القدر كان للأمير بالمرصاد. إذ ما كاد الرسل يطاردون الذئب ويعثرون عليه حتى رفع ادراستوس رمحاً حديدياً وقذفه به، ولكن الرمح أخطأ الذئب وأصاب أتايس في قلبه، فقتله في الحال.. وبهذا تحقق حلم الملك.

وأسرع أحد الرسل إلى الملك يفضي إليه بالنبأ المؤلم؛ وكان للنبأ وقع الصاعقة على الأب، وبالأخص لأن مصرع ابنه جاء على يد الرجل الذي لجأ إليه فأواه وأحسن إليه.

وحينما جاء الرجال يحملون جثة أتايس إلى أبيه، ركع ادراستوس أمام الملك، وتضرع إليه كي يقتله.

ولكن الملك أنهضه وقال له إن الخطأ ليس خطأه لأن القدر سبق أن نبهه إلى هذا المصير، ولكنه لم يرتدع..

وعندما دفنت جثة أتايس، شق ذلك على نفس ادراستوس، فانتحر فوق القبر..

واستسلم الملك المفجوع للحزن عامين كاملين..

الفصل الخامس

كرويسوس

نسى الملك كرويسوس أحزانه بعد عامين حينما جاءه نبأ يقول أن سايروس بن قمبيز دمر إمبراطورية استياجس وسايا كساريس، وأن الفرس يزدادون قوة يوماً بعد آخر. وقرر كرويسوس أن يستشير الآلهة فيما إذا كان من مصلحته أن يبادر بالوقوف في وجه الفرس لوقف توسعهم.

ولذلك أوفد رسلا إلى آلهة الإغريق وإلى الإله آمون في صحراء ليبيا.

وطلب الملك من رسله أن يعدوا الأيام التي تنقضي منذ رحيلهم عن سرديس وفي اليوم المائة يستشيرون الآلهة فيسألونها عما يفعله الملك كرويسوس بن الياتس ملك ليديا في تلك اللحظة، وعلى الرسل أن يسجلوا الإجابة كتابة ويعودوا بها إليه. وحينما فعلوا ذلك تبين أن إجابة دلفي هي الصحيحة، إذا قال الإله أن الملك يطهو سلحفاة مع حمل في قدر نحاسي له غطاء من النحاس.

وكان هذا هو فعلا ما صنعه الملك في ذلك اليوم. وعندئذ قرر الملك أن يستشير إله دلفي فيما إذا كان من مصلحته الاشتباك في الحرب مع

الفرس أم لا. وبعد أن حمل رسله بالهدايا للإله، طلب منهم سؤال الإله دلفي عما إذا كان من مصلحته محاربة الفرس أم لا، وهل ينبغي أن يستعين بحلفاء أم لا.. وجاء الرسل يقولون إن الآلهة أجمعت على أن اشتباك الملك في الحرب مع الفرس سيؤدي إلى تدمير إمبراطورية كبيرة، وأن عليه أن يستعين بحلفاء أقوياء من اليونانيين..

وكاد الملك يطير فرحاً، برغم أنه أخطأ في تفسير النبوءة، وخرج بجيشه إلى كابادوسيا وهو مطمئن إلى أنه سيهزم سايروس ويقضي على إمبراطورية الفرس. وعندما وصل بجيشه إلى نهر هاليس، وعبره، دخل إلى إقليم كابادوسيا الذي كان يطلق عليه بنزيا، ويقع بجوار مدينة سينوبيه على نهر إيوكسين. وهنا أقام كرويسوس معسكره في أمنع نقطة وبدأ ينهب حقول السوريين. وحاصر مدينة التسريين واستولى عليها وجعل من أهلها أرقاء، كما استولى على القرى المجاورة وأخضعها لحكمه. وهكذا جلب الخراب على السوريين برغم أنهم لم يرتكبوا إثما.. وفي تلك الأثناء كان سايروس قد حشد جيشه وزحف لملاقاة كرويسوس، وكان يضم إليه قوات جديدة من الشعوب الموالية له أثناء سيره. وحينما التقى الجيشان دارت بينهما رحى معركة دموية طاحنة سقط فيها كثير من القتلى من الجانبين بغير أن يكتب النصر لأحدهما، وحينما أقبل الليل كان الفريقان لا يزالان يقاتلان ببسالة معدومة النظير.

وفي اليوم التالي، لم يستأنف سايروس القتال فعاد كرويوس بجيشه إلى سرديس وهو يعتزم جمع حلفاءه والعودة لملاقاة عدوه في الربيع. وعلى أثر

وصول كرويوس إلى سرديس سرح جيشه، نظراً لأنه كان مكوناً من جنود من المرتزقة، ولأنه لم يكن يتوقع أن يجازف سايروس بالمجيء إلى سرديس..

وفجأة. ظهر سايروس بجيشه عند مشارف سرديس. ذلك أنه ما كاد يوهم كرويوس بأنه لا يعتزم استئناف القتال، ويستوثق من رحيل كرويوس بجيشه، حتى قرر أن يهاجم سرديس فجأة حتى لا يدع لملكها فرصة حشد جيشه.

واسقط في يد الملك ليديا، ولكنه كان رجلا شجاعاً، فخرج لملاقاة العدو بما بقى لديه من قوات.. وتقابل الجيشان في سهل أمام سرديس، وكان سهلا مسطحاً مجرداً من الأشجار يرويه نهر هايلوس وأنهار أخرى عديدة تصب كلها في نهر واحد كبير هو نهر هرمس.

وعندما رأى سايروس الليديين وهم ينظمون أنفسهم في السهل استعداداً للقتال، ولاحظ أنهم يضعون فرسانهم في المقدمة، لجأ إلى خدعة تعلمها من محاربا جوس أحد الميديين فجمع ما لديه من جمال وضعها في المقدمة، لتواجه جياد الليديين، ونظراً لأنه كان يعلم أن الجياد تنفر من الجمال بسبب رائحتها، فقد قرر أن يكون ذلك سبباً في التخلص من فرسان أعدائه وصح ما توقعه سايروس، إذ ما كادت جياد الليديين تشم رائحة الجمال حتى ولت الأدبار. ولكن الليديين كانوا محاربين شجعان، فترجلوا عن جيادهم واشتبكوا مع العدو في معركة دامية. وطال أمد المعركة وبعد مذبح طويلة، تقهقر الليديون إلى ما وراء أسوار المدينة فحاصرها

الفرس.. وخيل لكرويسوس أن الحصار سيطول أمده فأوفد رسلا إلى جيرانه وحلفائه يطالبهم بالتجمع في سرديس في مدى خمسة أشهر..

ولكن تطور الموقف المفاجئ قضى على أحلام كرويسوس. ذلك أن أحد جنود سايروس لاحظ أن في سور المدينة منطقة خطرة يستحيل تقريبا تسلقها، ولذلك لم يعين الليديون أحداً لحراستها. وبعد أن استأذن هذا الجندي من قائده في محاولة تسلق السور من هذه المنطقة وأذن له، استطاع الجندي أن يتسلق السور بعد لأي، وسرعان ما تبعه الكثيرون وبهذا سقطت سرديس، وأعمل العدو فيها السلب والنهب.

أما كرويسوس نفسه فكاد يموت بطعنة رمح من جندي فارسي يجهل شخصيته لولا أن رأى ابنه الأبكم ما كاد يحل بأبيه فانحلت عقدة لسانه وصاح "أيها الرجل، لا تقتل كرويسوس".

وسقط كرويسوس أسيراً في أيدي الفرس بعد أن استمر حكمه أربعة عشر عاما، وهكذا حقق نبوءة الآلهة فقضى على إمبراطورية عظيمة هي إمبراطوريته.

وجاء الفرس بكرويسوس مكبلا بالأغلال وأوقفوه أمام ملكهم الظافر. فأمر الملك بعمل كومة هائلة من الأخشاب، ثم أجلسوا كرويسوس فوق الكومة وأجلسوا معه أربعة عشر شاباً من الليديين. وأدرك كرويسوس أن عدوه يعتزم حرقه، وتذكر في تلك الأثناء العبارة التي سمعها من سولون "ليس هناك إنسان سعيد وهو على قيد الحياة" وعندئذ تنهد من أعماق

قلبه، ثم تأوه: وردد اسم سولون ثلاثا، وسمع سايروس الصوت فطلب من المترجمين أن يستعملوا من كرويسوس عما يقول، ولكن الأسير لاذ بالصمت، فألحوا عليه في الكلام، وأخيراً قال: "إنني مستعد لأن أدفع أي ثمن لكي أرى رجلا معيناً يخاطب جميع الملوك". ولم يفهم المترجمون المعنى الذي قصده كرويسوس، فألحوا عليه لكي يفسر ما يعنيه وعندئذ اضطر إلى الإفضاء إليهم بالحديث الذي دار بينه وبين سولون الأثيني منذ أمد طويل، وكيف أن كل ما قاله سولون قد تحقق بحذافيره ولو أن حديثه لم يكن منصبا عليه وإنما كان عاماً. وبينما كان كرويسوس يتحدث أشعل بعض جنود سايروس النار في الخشب؛ فلما سمع سايروس من مترجميه ما قاله الملك الأسير، تملكه الندم. فأصدر أمره لرجاله لكي يطفئوا النار، ولكنهم فشلوا في السيطرة عليها.

وحينما تبين لكرويسوس ندم سايروس وفشل رجاله في إطفاء النار، نادى لأعلى صوته الإله أبولو وتضرع له أن يخف لنجدته وإنقاذه من الخطر المحدق به.. وفجأة تجمعت سحب سوداء بعد أن كان الجو صافياً، وانهمر مطر غزير أطفأ النار سريعاً؛ وحينئذ آمن سايروس بأن كرويسوس رجل مبارك، فسأله بعد أن أنزلوه من فوق كومة الأخشاب وحلوا وثاقة عمن دفعه إلى محاولة غزو بلاده واتخاذه عدوا له بدلا من أن يكتسب صداقته فأجاب كرويسوس: "أيها الملك، إن ما فعلته كان من حسن حظك وسوء حظي. وإذا كان هناك من يستحق اللوم فإنه آلهة اليونان التي شجعتني على البدء بالحرب..".

وهنا طلب سايروس من كرويسوس أن يجلس بجواره، وأحاطه باحترام كثير. وحينما لاحظ الملك المهزوم أن جنود الملك المنتصر يعملون السلب والنهب في المدينة، قال له: "هل تسمح لي بأن أقول لك ما يدور بخلدي أم أن الصمت أحسن؟". فطلب إليه سايروس أن يفضي إليه بذات نفسه. فقال: "ألا ترى ما يصنعه هؤلاء الجنود؟ إنهم لا ينهبون مدينتي، لأنها لم تعد مدينتي، ولكنهم ينهبون ثروتك".

وفطن سايروس إلى ما في قول كرويسوس من حكمة، فأمر رجال حاشيته بالانسحاب، ولما انفرد بكرويسوس، سأله أن يبين له أحسن سبيل للعمل. فقال كرويسوس: "أما وقد أرادت الآلهة أن أصبح مدينا لك بحياتي، فاسمح لي أن أقول لك إن الفرس شعب فقير ولكنه تكبر، فإذا تركت جنودك ينهبون المدينة، فلسوف تبطرهم النعمة ويتمردون عليك إذا لم تستطع أن تقدم لهم المزيد؛ ومن ثم فإذا أردت نصيحتي فاجعل عند أبواب المدينة عدداً من رجال حرسك الخاص ومرهم بالاستيلاء على كل ما سلبه الجنود ونهبوه من المدينة عند خروجهم من الأبواب بدعوى أن تلك هي العشور المطلوبة لجوبيتر وبذلك تتجنب حقد الجنود عليك وتنازلهم عما نهبوه طواعية".

وسر سايروس بهذه النصيحة أيما سرور، وأصدره أوامره لرجال حرسه بالعمل تبعاً لما أشار به كرويسوس. وهنا طلب كرويسوس أن يسمح له بإيفاد رسول إلى معبد دلفي ليضع الأغلال التي كان موثوقاً بها عند بابه. ثم شرح له النبوءة التي سبق أن جاءه الرسل بها، فضحك سايروس على

ذلك، وحمل كرويسوس رسله برسالة للآلهة، وعندما عاد الرسل قالوا لكرويوس إن أبولو قال لهم إن العقاب الذي حل به كان نتيجة للشرور التي ارتكبها جده الخامس الذي كان من رجال حاشية هركليدس، فاغتصب امرأته، وذبحه، واعتلى عرشه. وكان أبولو يرغب في ألا تحل اللعنة بكرويسوس ولكن الأقدار رفضت ذلك، وإنه هو الذي أنقذه من الموت حرقا. ثم إن الإجابة التي تلقاها على استعلامه الأول قالت إنه سيدمر إمبراطورية عظيمة، ولكنه أخطأ وفهم أن الإمبراطورية المقصودة هي إمبراطورية سايروس بينما الواقع أن النبوءة كانت تعني إمبراطوريته هو، وكان الأجدر به أن يعود للاستعلام من الآلهة عن اسم الإمبراطورية التي سيدمرها ولكنه تسرع فحق عليه الجزاء..

وهكذا انتهت إمبراطورية كرويسوس.

الفصل السادس

أسطورة سايروس

اقتصرت في حديثي حتى الآن على بيان كيفية خضوع الليديين لحكم فارس، وأصبح لزاماً علي الآن أن أبين من هو سايروس الذي قضى على إمبراطورية الليديين وما هي الوسائل التي استخدمها الفرس حتى أصبحوا سادة آسيا.

كان هناك رجل ميدي اسمه ديوسس بن فراورتس اتصف بالحكمة ولكنه كان رجلا طموحاً يسعى للاستئثار بالملك لنفسه ولهذا رسم الخطة المدهشة التالية لتحقيق مآربه. كان الميديون يقيمون في تلك الأثناء في قرى مبعثرة بغير أن تكون لهم سلطة مركزية ولا قانون ينظم العلاقات بينهم، ولما كان ديوسس يحتل مكانة مرموقة في قريته فقد كرس وقته للتحكم بين المتنازعين.

وسرعان ما اشتهر بين قومه بالعدالة وسداد الحكم فاتخذوه حكما في كل ما يطرأ بينهم من خلاف ونزاع، وما لبث أن اشتهر أيضاً بين سكان القرى المجاورة، ونظراً لأن سكان جميع القرى كانوا يعانون في فساد النظام والأحكام فإنهم كانوا يجيئون إلى ديوسس ليفض منازعاتهم.

واستمر عدد الحالات التي تعرض عليه في الازدياد، وعندئذ أيقن ديوسس أن الوقت قد حان للإقدام على الخطوة التالية، فأعلن أنه سيكف عن التحكيم لأنه أصبح يشغل وقته كله بدرجة أنسته مصالحه الخاصة.

وعندئذ بدأت الفوضى تعود فاجتمع الميديون من كل حدب وصوب وعقدوا مؤتمراً كبيراً حضره كثيرون من أصدقاء ديوسس واقترحوا تنصيب ملك عليهم يتولى أمورهم ويجرى العدل بينهم.. وبعد مناقشات طويلة قرر المجتمعون اختيار ديوسس ليكون ملكا عليهم.

وعندما أبلغ هذا القرار لديوسس، طلب بناء قصر يتلاءم مع مركزه، وأن يعين له حرس خاص، فبنى الميديون له قصراً مساحته أربعة أخماس الميل، وتركوا له حرية اختيار حرسه الخاص؛ وبعد أن ارتقى ديوسس العرش، طلب من الشعب بناء مدينة عظيمة تكون عاصمة للملك، فبنى الميديون مدينة اجبتانا وجعلوها مدينة حصينة منيعة حولها سور مرتفع يكفل رد العدوان عنها.

وأصدر الملك الجديد أمراً بمنع اتصال الأفراد بالملك مباشرة، وإنما جعل هذا الاتصال عن طريق موظفيه ورسله.

وكان يلتقي الشكاوى مكتوبة ويبت فيها بالعدل الذي اشتهر به.

وهكذا استطاع ديوسس أن يجعل من الميديين شعباً واحداً يحكمه بمفرده.

وبعد أن حكم ديوسس ثلاثة وخمسين عاماً، مات فخلفه ابنه فراورتس. ولم يكتف الملك الجديد بالدولة التي تركها له أبوه، فغزا فارس وأخضعها لحكمه؛ وبعد أن أصبح ملكا على شعبين قويين، تقدم لغزو آسيا فراح يقهر الدولة تلو الأخرى، وأخيراً اشتبك في حرب مع الآشوريين، أو ذلك القطاع من الآشوريين الذي كان يتخذ من نينوي عاصمة له. ونظراً لأنهم كانوا شعباً قويا، فقد استطاعوا الانتصار على فراورتس الذي قتل في ميدان القتال بعد أن حكم اثنين وعشرين عاماً.

وبعد موت فراورتس اعتلى ابنه أجزرسيس العرش، ويقال إنه كان رجلا عسكريا أقوى من أسلافه وأنه أول من شكل جيشاً آسيويا منتظماً، فقسم الجيش إلى فرق بين حملة رماح، وحملة سهام، وفرسان بعد أن كانوا كتلة واحدة.. وبعد أن استقرت له الأوضاع زحف على نينوي ليثأر لأبيه واشتبك مع الآشوريين في معركة رهيبة انتهت بهزيمة الآشوريين، وعندما تهيأ فراورتس لحصار المدينة اكتسح عددا هائلا من الأسقوثيين بقيادة ملكهم ماديس آسيا في مطاردتهم للسامريين الذين طردوهم من أوربا ودخلوا أراضي ميديا.

وبعد أن غزا جيش اسقوثيا ميديا واستولوا عليها أصبحوا سادة آسيا وزحف الأسقوثيون قدما، وفي نيتهم غزو مصر؛ إلا أنهم ما كادوا يصلون

إلى فلسطين، حتى استقبلهم ملك مصر بالهدايا وطلب منهم عدم الاستمرار في التقدم. وفي طريق عودتهم مروا بالمدينة السورية اسكالون، وتلكأ عدد منهم في المؤخرة حيث نهبوا معبد سلسبتال فينوس وهو أقدم معابد هذه الآلهة.

واستمرت سيطرة الاسقوثيون على آسيا ثمانية وعشرين عاماً واتصف حكمهم بالعسف وابتزاز الأموال، وأخيراً دعا اجزرسيس والميديون عظماء الاسقوثيين إلى وليمة كبيرة وبعد أن أسرف الضيوف في شرب الخمر، ذبحهم أجزرسيس ورجاله وبذلك استعادت ميديا إمبراطوريتها واستولت على نينوي، وغزت آشور كلها باستثناء بابل.

ومات اجزرسيس بعد ذلك بعد أن حكم ميديا أربعين عاماً، فخلفه ابنه استاياجس الذي أنجب ابنة رأى لها في الحلم رؤيا مدهشة، فقد علم أنه انبثق منها مجرى ماء لم يغمر العاصمة فقط، بل غمر آسيا كلها. وطلب الملك من مفسري الأحلام أن يفسروا له معنى هذا الحلم. وأزعجه تفسيرهم، فلما بلغت ابنته طور الأنوثة رفض أن يزوجها لأحد الميديين وزوجها لرجل فارسي من أسرة كبيرة.

وهكذا تزوج هذا الفارسي، وكان اسمه قمبيز، بماندانيه، وبعد عام رأى الملك استاياجس رؤيا ثانية مفادها أن كرمت نبتت من رحم ابنته وظللت آسيا كلها. وحينما قدم المفسرون له معنى هذا الحلم بعث يستدعي ابنته ماندانيه من فارس. وكانت قد أنجبت طفلا، وعلى وشك أن

تنجب الثاني، وعند مجيء ماندانيه وضعها أبوها تحت الملاحظة وقد اعتزم أن بقتل الطفل الذي ستلده لأن المفسرين قالوا له إن الطفل الذي ستلده ابنته سيحكم آسيا بدلا منه. ومن ثم فما أن ولدت ابنته طفلها سايروس حتى بعث يستدعي هارباجوس وهو من أخلص أعوانه، وطلب إليه أن يأخذ الطفل ويذبحه بعد أن أفضى إليه بتفسير المنجمين للحلم الذي رآه أثناء نومه.

وبعد تردد نزل هارباجوس على أمر الملك فحمل الطفل إلى منزله وهو يبكي؛ وأخذ يتشاور مع زوجته في الأمر، وأخيراً استقر رأيهما على أن يبعثا في استدعاء رجل اسمه متراداتس أحد رعاة استاياجس، كان هارباجوس يعلم أن مراعيه أصلح مكان لتحقيق رغبة الملك، لأنها موجودة بين جبال تعج بالوحوش؛ وكان هذا الرجل متزوجاً من إحدى جواري الملك واسمها سباكو، وكانت الجبال التي ترعى ماشيته عند حافتها في شمال اجبتانا. وعندما جاء متراداتس أمره هارباجوس بأن يأخذ الطفل معه وأن يقدمه للوحوش لقتله بناء على أمر الملك، وقال له إن الملك سوف يقتله إذا لم ينفذ هذا الأمر.

وحمل الراعي الطفل بين ذراعيه، ومضى به إلى منزله وهو شديد الحيرة. واستقبلته زوجته متلهفة، وما كادت تسمع قوله حتى استبد بها القلق وبالأخص حينما لاحظت أن الطفل يرتدي ثياباً فاخرة موشاة بالذهب. وقال زوجها أن هارباجوس بعث معه خادماً من قصر الملك ليدله على الطريق وأن الخادم قال له أن الطفل ابن ماندانيه ابنة الملك،

وأن اسم أبوه اجزرسيس واسمه هو سايروس. وأن أوامر الملك تقضي بقتل الطفل..

وانفجرت زوجة الراعي باكية وراحت تناشد زوجها ألا يقتل الطفل، فلما فشلت في أول محاولة، أعادت الكرة، قالت لزوجها أنها مستعدة للتضحية بطفلها الذي ولدته منذ أيام على أن تتولى هي تربية طفل ابنة الملك.. وخيل لزوجها أن تلك الفعلة– وإن كانت تنطوي على تضحية نادرة– فإنها أحسن مخرج من المأزق. ومن ثم قرر إتباعها بدون إضاعة للوقت. فأعطى الطفل سايروس لزوجته، وبعد أن ألبس ابنه ثياب الطفل الملكي حمله بين ذراعيه إلى منطقة ترتادها الوحوش في الجبال، وتركه هناك، وبعد ثلاثة أيام– وكان قد ترك أحد أتباعه لمراقبة الطفل– ذهب متراداتس إلى المدينة وقابل هارباجوس وقال له إنه مستعد لاطلاعه على جثة الطفل، فبعث هارباجوس بأحد خلصائه مع الراعي. وبعد أن تأكد الرسول من موت الطفل، دفنت جثته في حفل مهيب.

وهكذا أخذت زوجة الراعي طفل ابنة الملك لتربيه تحت اسم آخر.

وعندما بلغ الطفل العاشرة من عمره وقع حادث كشف حقيقة أمره، فقد كان يلعب ذات يوم مع عدد من فتيات القرية ممن هم في مثل سنه. وقد اختار الغلمان، ابن الراعي، وهو الاسم الذي كان يطلق على سايروس حينذاك، ليلعب دور الملك. فأخذ الغلام يصدر إليهم أوامره– فالبعض يبني له بيوتاً، والبعض الآخر يحرسونه، وأحدهم يكون له عينا،

وآخر يحمل رسائله. وكان من بين الغلمان ابن ارتمبارس وهو من كبار الميديين وقد رفض أن ينفذ أوامر سايروس، وعندئذ أمر سايروس الغلمان الباقين بالقبض على الغلام، وعندما نفذ الأمر. أدب سايروس الغلام بأن ضربه بالسوط ضرباً قاسياً. وعندما عاد الغلام إلى أبيه شكا إليه مما حل به على يد ابن الراعي فأخذ ارتمباس ابنه وذهب إلى الملك استاياجس وشكا إليه مما فعله ابن الراعي. فأراد الملك أن يطيب خاطر ارتمبارس فأرسل يستدعي الراعي وابنه. وما كاد الملك يثبت عينيه في الغلام حتى ابتدره بقوله "كيف جرؤت يا فتى على معاملة ابن أحد النبلاء بمثل هذه القسوة؟" فأجاب سايروس بكل جرأة: "لقد عاملته بما يستحقه يا مولاي. لقد اختاروني ملكا في اللعب لأنهم ظنوا إنني أحسن من يستطيع أن يؤدي هذا الدور؛ وأطاع الجميع أوامري إلا هذا الغلام فلم يكن مفر من تأديبه، فإذا كنت تعتقد إنني استحق عقاباً على ذلك فإنني مستعد لاحتماله يا مولاي!".

وبينما كان الغلام يتكلم، بدأت الشكوك تتلاعب بالملك من ناحية شخصية الغلام، فقد لاحظ وجود شبه كبير بين وجه الغلام ووجهه، كما أن سنه يتلاءم مع سن حفيده الذي أمر بقتله، ووجم الملك قليلا، وأخيراً قال لارتمباس أنه سيبت في الأمر بما يرضيه. ثم أمر بوضع سايروس في غرفة منعزلة، وبعد أن صرف جميع الحاضرين، استبقى الراعي معه. فلما انفردا سأله أين حصل على الغلام، فأجاب الراعي إن الغلام ابنه وأن أمه مازالت على قيد الحياة. وهنا لجأ الملك إلى التهديد وشدد النكير على الراعي حتى اضطره في النهاية إلى الاعتراف بكل شيء.

وعصف الغضب بين جنبي الملك، فأرسل يستدعي هارباجوس، فلما جاء ورأى الراعي مع الملك فهم كل شيء، وما كاد الملك يسأله عما فعله بحفيده، حتى صارحه بالحقيقة كلها، وبما فعله بالطفل.

وحرص الملك عن أن يكتم غيظه وغضبه. وقال: إذن فما زال الطفل على قيد الحياة. إن ذلك من حس الحظ، فقد أثار موته حزني وحزن ابنتي الشديد. حقاً، لقد لعب الحظ دوراً رائعاً في الأمر، والآن اذهب يا هارباجوس إلى منزلك وابعث بابنك ليكون رفيقاً لحفيدي، وسأقيم الليلة وليمة كبيرة احتفاء بنجاة الطفل تكون أنت ضيف الشرف فيها.

وطغى الفرح على هارباجوس لنجاته من الخطر، وأسرع إلى منزله حيث أرسل ابنه، وكان فتى في حوالي الثالثة عشرة من عمره، إلى قصر الملك. وما كاد الغلام يصل إلى القصر حتى ذبحه الملك، وقطعه إربا، وحمر بعض قطع من لحمه، وسلق البعض الآخر. وعندما تم كل شيء. احتفظ بالرأس والأطراف والأمعاء في سلة. فلما حان موعد الوليمة وجاء هارباجوس ومعه بقية المدعوين. لم يقدم لهارباجوس غير قطع من لحم ابنه، فأكلها بغير أن يعلم حقيقتها، وبعدئذ أمر الملك هارباجوس بأن يرفع الغطاء عن السلة، وما كاد هارباجوس يرى رأس ابنه في السلة حتى تنهد خفية ولكنه ظل رابط الجأش؛ وعندما سأله الملك عما إذا كان يعرف نوع اللحم الذي أكله أجاب بالإيجاب.

على هذا النحو عاقب الملك هارباجوس. وبعد ذلك راح يفكر فيما يفعله بحفيده، فبعث يستدعي المنجمين، فلما جاءوا قال لهم إن الغلام أفلت من الموت، وقص عليهم قصة الدور الذي لعبه الغلام مع أبناء القرية، وعندئذ قال المنجمون أن قيام الغلام بدور الملك في طفولته معناه أنه لن يقوم به بعد ذلك، لأن الحلم تحقق فعلا ولم يعد هناك ما يخشى من الغلام.

وارتاح لهذا التفسير الذي قدمه المنجمون ليفلتوا بجلدهم. وبعد انصراف المنجمين، استدعى الملك حفيده، وأرسله إلى والديه في فارس وما كاد الأبوان يعلمان أن ابنهما على قيد الحياة حتى كادا يطيران من الفرح. وسألا الغلام عن اسم المرأة التي أرضعته، فلما عرفاه، استدعياها وعرفا منها القصة كلها..

وعندما شب سايروس إلى طور الرجل، اشتهر بالشجاعة وشدة البأس..

وكان هارباجوس يتحين الفرص للثأر من الملك، فراح يتودد إلى سايروس، وبدأ يرسم خطته ليكون الانتقام من استياجس على يدي سايروس. ولتحقيق مأربه أخذ يتصل بنبلاء ميديا الذين أزعجهم طغيان الملك ويغريهم بالانضمام إلى سايروس وخلع الملك. وبعد أن أتم هارباجوس هذه الاستعدادات أراد أن يبلغ رغبته لسايروس الذي كان لا يزال يقيم في فارس، ولكن الطرقات كانت محروسة، والجواسيس منتشرون

في كل مكان، ومن ثم لم يكن مفر من أن يبتكر طريقة تمكنه من إيصال رسالة لسايروس، وأخيراً هداه تفكيره إلى خدعة جهنمية، فأحضر أرنب بريا فتح بطنه ووضع فيه رسالة مشتملة على جميع تفاصيل المؤامرة، ثم عاد فخاط بطن الأرنب بعناية، وعهد لأحد أعوانه المقربين بإيصاله بعد أن جعله يرتدي ثياب صياد.

وسارت الأمور وفق ما اشتهى هارباجوس، وتلقى سايروس الرسالة وقد جاء فيها: "إن الله يحميك يا ابن قمبيز، وإلا لما أنقذك من المغامرات الرهيبة التي مرت بك؛ وقد حان الوقت لتثأر لنفسك من استاياجس، القاتل. تذكر أنه أراد أن يقتلك، ولكن الله كتب لك النجاة بفضلي. وما أظنك تجهل ماذا فعل بك، ولا التنكيل الذي أنزله بي لأنني لم أقتلك والآن أصغ إلي، وأعقل ما سأقوله لك وعندئذ ستصبح إمبراطورية استاياجس كلها ملكا لك. أشعل نار الثورة في فارس، ثم ازحف على ميديا؛ وسواء عينني استاياجس قائداً على القوات التي ستقاتلك أم لا، فإن كل شيء سيسير وفق ما تشتهي لأننا سننتقم لك بلا إبطاء، فأسرع.

وعندما تلقى سايروس هذه الرسالة راح يفكر في خير وسيلة تمكنه من إقناع الفرس بالانضمام إليه، وبعد تفكير طويل؛ كتب ما ظنه مبلغا إياه رغبته فوق لفافة، ثم دعا الفرس لعقد اجتماع، وأثناء الاجتماع فض اللفافة وأذاع ما فيها بقوله أن استاياجس عينه قائداً عليهم، ثم قال أنه مادام قد أصبح قائدهم فإنهم يأمرهم بالذهاب وإحضار جميع ما في المدينة في مناجل. ثم فض الاجتماع.

وعندما أطاع الفرس أمره، اختار قطعة من الأرض مساحتها عشرون فورلونج مربعاً ومغطاة بالأشواك وأمرهم بتنظيفها من كل ما بها قبل انقضاء النهار. ففعلوا ذلك. وعندئذ أمرهم بالاستحمام في اليوم التالي والمجيء إلى نفس المكان. وفي تلك الأثناء جمع كل ما لدى أبيه من قطعان الماعز والأغنام بالإضافة إلى ما لديه من ثيران، ونحرها جميعاً، وأعد وليمة فاخرة للجيش الفارسي كله، وجلب أيضاً كميات كبيرة منا لخبز والخمر المعتق، وعندما جاء اليوم التالي، وحضر الفرس في الموعد المحدد أمرهم سايروس بالجلوس فوق الأعشاب والاستمتاع بالوليمة. وحينما امتلأت بطونهم سألهم: "أيهما أحب إلى نفوسهم عمل الأمس أم عمل اليوم"، فأجابوا بأن الخلاف بين العملين كبير بالطبع: فأمس لم يجلب لهم شيئاً ولهذا كان يوماً سيئاً. وأما اليوم فكل شيء فيه جميل.. وفي التو استغل سايروس إجابتهم وقال لهم: يا رجال فارس، إذا استمعتم إلى كلامي فستستمتعون بمئات من هذه الولائم، ولن تتعبوا أنفسكم في العمل الشاق، أما إذا رفضتم الاستماع إلي فأعدوا أنفسكم لأعمال شاقة كعمل الأمس، ابتعوني تتحرروا، فإنني أشعر بأن السماء اختارتني لتحريركم، وأنني لعلى ثقة من أنكم لا تقلون عن الميديين في شيء. بل تفوقونهم في الشجاعة، فتمردوا إذن على استياجس بلا إبطاء.

ولما كان الفرس قد ضاقوا بحكم الميديين. ووجدوا أخيراً زعيما يقودهم، فقد سرهم الانضمام إليه. وفي تلك الأثناء علم استياجس بما يدبره سايروس، فأرسل يستدعيه، فقال سايروس للرسول: "قل لاستياجس إنني سآتي إليه بسرعة أكثر مما يريد". وعندما تلقى استياجس هذه الرسالة

بادر بتسليح الميديين، ولكنه كان من الجهل بحيث عهد إلى هارباجوس بقيادة الجيش، فلما التقى الجيشان انضم معظم الليديين للفرس، بينما لاذ الباقون بالفرار.

وجن جنون استياجس، فخرج بمن تبقى لديه من الميديين في المدينة وتقابل مع جيش الفرس، ودارت بين الفريقين معركة حامية انتهت بهزيمة الميديين وسقوط ملكهم استياجس أسيراً.

واقترب هارباجوس من الملك الأسير وراح يتشفى فيه، ويذكره بلحم ابنه الذي أرغمه على تناوله.

وهكذا فقد استياجس تاجه بعد حكم دام ثلاثة وثلاثين عاما، وخضع الميديون لحكم الفرس، بعد أن ظلت إمبراطوريتهم قائمة مائة وثمانية وعشرين عاماً.

الفصل السابع

ثورة سرديس

على أثر سقوط ميديا في قبضة الفرس أوفد الأيونيون والأيوليان اليونانيون رسلا إلى سايروس بسرديس يعرضون عليه ولاءهم على أساس العلاقة التي كانت قائمة بينهم وبين كروسيوس، وأصغى سايروس إلى مقترحاتهم بعناية، ثم أجاب عليها بقصة خرافية.. قال: "كان عازف مزمار يمشي على شاطئ البحر ذات يوم حينما رأت عيناه مجموعة كبيرة من السمك، فراح ينفخ لها في مزماره متوهما أنها ستخرج له على الأرض ولكنه سرعان ما تبين أنه واهم في ظنه، فأخرج شبكة وألقاها في الماء فاصطاد السمك. وعندئذ أخذ السمك يثب ويرقص، ولكن المزمار قال له: كفى رقصاً الآن، فإنك لا تختر المجيء والرقص عندما نفخت لك في المزمار".

كانت تلك هي إجابة سايروس على رسالة الأيونيين والأيوليان لأنه عندما حثهم على الثورة ضد كرويسوس رفضوا الإصغاء إليه، فلما رأوا أنه أصبح سيد الموقف جاءوا يعرضون عليه خضوعهم.

وما كاد الرسل يتبينون شدة غضب سايروس على شعبهم حتى بادروا بإبلاغ مواطنيهم إجابة سايروس، فخف هؤلاء لتحصين مدنهم وعقدوا الاجتماعات في البانيونيوم حضرها الجميع فيما عدا الميليسيان

الذين سبق أن عقدوا معاهدة منفصلة مع سايروس. وقرر الأيونيون بإجماع الآراء إيفاد رسل إلى إسبارطة يناشدونها العون.

وحينما وصل الرسل إلى أسبارطة، حاولوا إقناع أهلها بتقديم العون لمواطنيهم، ولكنهم رفضوا، فاضطر الرسل إلى الرحيل، ولكن الاسبرطيين أرسلوا قاربا إلى الشاطئ الأسيوي عليه بعض الأسبارطيين لمراقبة كل من سايروس وأيونيا.

وعند وصول هؤلاء الرجال إلى فوسيه، بعثوا لأسرنيس. وهو ألمعهم، لمنع سايروس من العبث بأية مدينة من مدن اليونان لأنهم لن يسمحوا بذلك..

ويقال أنه ما كاد سايروس يسمع حديث الرسول الأسبارطي حتى قال: إنني لم أشعر يوماً بالخوف من أحد، فإذا كتب لي أن أعيش فسيجد الأسبارطيون من متاعبهم ما يستحق الحديث بدلا من أن يتدخلوا في شئون الأيونيين".

وبعد هذا الحديث غادر سايروس سرديس بعد أن عهد بحكمها إلى تابالوس الفارسي ولكنه عين باكتاياس الليدي لجمع كنوز كروسيوس وغيره من الليديين واللحاق به، ثم زحف سايروس بجيشه على أجبتانا آخذاً كروسيوس معه نظراً لأنه لم يكن يعتقد أن الأيونيين يستحقون اهتمامه، فضلا عن أنه كان يعتزم الاستيلاء بنفسه على بابل والبصرة ومصر. ومن ثم عهد إلى أحد قواده بغزو أيونيا.

إلا أنه ما كاد سايروس يغادر سرديس، حتى راح باكتاياس يحث قومه على الثورة ضد سايروس ونائبه تابالوس؛ ونظراً لوفرة الكنوز والأموال التي كانت تحت تصرفه، فقد سار باكتاياس إلى البحر وراح يستأجر الجنود المرتزقة ويحث قومه المقيمين على الساحل على الانخراط في سلك الجيش؛ وبعدئذ زحف على سرديس ليحاصر تابالوس الذي لاذ بالقلعة.

وعندما سمع سايروس بهذه الأنباء وهو في طريقه إلى اجبتاناً تحول إلى كروسيوس وقال له "أين تعتقد ستنتهي هذه المهازل يا كروسيوس؟ يخيل إلي أن الليديين لن يكفوا عن إثارة المتاعب لأنفسهم ولغيرهم حتى ليخيل إلي أن أفضل وسيلة لعلاجهم هي بيعهم رقيقاً" وأدرك كروسيوس أن بني وطنه أصبحوا عرضة للخطر الداهم، فأسرع يقول: إن كلماتك طافحة بالحكمة يا مولاي، ولكني أتضرع إليك ألا تترك العنان لغضبك، وألا تحكم على مدينة عريقة بالتدمير. ولئن كان باكتاياس هو الذي آثار حركة التمرد، فإن عليه أن يدفع الثمن؛ فأتوسل إليك أن تصفح عن الليديين هذه المرة، ويكفي أن تجردهم من السلاح حتى لا يعودوا للتمرد".

وانفثأ غضب سايروس، واستدعى ميديا اسمه مازاريس وعهد إليه أن يبلغ الشروط التي عرضها كرويسوس، وأمره بأن يبيع، كرقيق، جميع الذين انضموا لليديين في هجومهم على سرويس، وأن يحضر باكتاياس حياً. وبعد أن أصدر سايروس هذه الأوامر استمر في زحفه إلى الأراضي الفارسية.

الفصل الثامن

سقوط بابل

تشتمل آشور على عدد كبير من المدن الكبرى، أهمها وأمنعها مدينة بابل التي انتقلت إليها حكومة البلاد بعد سقوط نينوي. وتقع المدية في سهل فسيح مربع الشكل مساحته أربعمائة وثمانون فورلونج. أما فخامتها فلا تضارعها فيها أية مدينة أخرى. يحيط بها خندق عريض عميق مملوء بالماء، من خلفه سور عرضه خمسون قدما وارتفاعه مائتا قدم وبهذا السور مائة بوابة كلها مصنوعة من النحاس (الصب). وتنقسم المدينة إلى قسمين يفصلهما نهر الفرات وهو نهر عريض عميق قوي التيار ينبع من أرمينيا. ومعظم منازل المدينة يتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق، وجميع شوارعها مستقيمة. ويعتبر السور الخارجي الكبير خط الدفاع الرئيسي عن المدينة. بينما توجد أسوار أخرى داخلية أقل سمكا ومناعة. وفي قلب أحد قسمي المدينة يوجد القصر الملكي يحيط به سور متين جداً، وفي القسم الثاني يوجد معبد الإله جوبيتر بيلوس.

ولقد حكم هذه المدينة ملوك كثيرون كان كل منهم يساهم بقدر في تقوية أسوار الدفاع عن المدينة. وسأكتفي هنا بذكر المرأتين اللتين حكمتا بابل وكان لهما شأن كبير في تاريخها. كانت أولاهما الملكة سميراميس التي ارتقت العرش قبل الملكة الثانية بحوالي خمسين عاما. وقد أنشأت ضفتين

للنهر في السهل بالقرب من بابل لمنع طغيان النهر على المدينة عند فيضانه.

أما الملكة الثانية فاسمها نيتوكريس. وكانت أكثر حكمة وأرجح عقلا من الملكة السابقة. ذلك أنها ما كادت تميز ما يتمتع الميديون به من قوة وبطش وكيف أنهم استولوا على عدد كبير من المدن من بينها مدينة نينوي حتى أيقنت أنهم سوف يهاجمون بابل بدورها ولهذا بذلت كل جهد في طاقتها لتحصين المدينة واستكمال الدفاع عن إمبراطوريتها. فعمدت إلى أحداث منحنيات في نهر الفرات الذي كان يتصف بأنه نهر مستقيم. وأقامت على كل جانب من جانبي النهر ضفة عريضة، ثم حفرت حوضاً ليكون بمثابة ترعة تستمد ماءها من نهر الفرات واستخدمت الطمي الذي استخرج من هذه الترعة في إنشاء الضفتين العريضتين اللتين أشرنا لهما. وعندما تم حفر الترع أمرت بإحضار أحجار ضخمة وضعتها على جوانب البحيرة الكبيرة. وبذلك خفت حدة تيار النهر بسبب كثيرة الانحناءات التي استحدثت فيه، والترعة الكبيرة التي حفرت على أحد جانبيه، وكان غرض الملكة من ذلك الحيلولة دون اختلاط الميديين بأهل بابل، ومنعهم من معرفة الأعمال التي كانت تؤديها.

ولم تكتف ينتوكريس بالأعمال التي أشرنا إليها، وإنما أنشأت قنطرة متحركة على نهر الفرات لتصل قسمي المدينة ببعضهما. ذلك أنه لم تكن هناك أية قنطرة على النهر حينذاك ولهذا كان الانتقال من أحد قسمي

المدينة إلى القسم الآخر يتم بواسطة القوارب وهو أمر متعب للغاية نظراً لقوة تيار النهر.

* * *

وعندما ماتت هذه الملكة العظيمة، خلفها على العرش ابنها لابنيتوس الذي شن شايروس حملته على بابل في عهده.

* * *

عندما زحف سايروس على بابل، اعترضه نهر قنديز، وهو نهر يتصف بشدة التيار بحيث يتعذر عبوره حتى بالقوارب.

ولم تفت هذه العقبة في عضد سايروس، فأمر جيشه بحفر مائة وستين قناة جانبية لتخفيف قوة التيار، واستطاع الجيش إتمام هذه العمل في النهاية، ولكن بعد انقضاء فصل الصيف وهو أصلح الفصول للأعمال الحربية.

وعندما بدأت بشائر الربيع التالي استطاع سايروس أن يعبر النهر بجيشه، وتقدم من بابل. وكان جيش الفرس ينتظر الغزاة خارج أسوار المدينة، فالتحم معهم في معركة عنيفة، ولكن الدائرة دارت على الفرس، فاضطروا إلى التراجع والاعتماد بالمدينة بعد أن أغلقوا أبوابها. وانصرفوا إلى أعمالهم العادية لشدة وثوقهم من مناعة تحصينات مدينتهم، ولأنهم

اختزنوا فيها مؤناً تكفيهم سنوات كاملة لما كانوا يترقبونه من مهاجمة سايروس لمدينتهم.

وتملكت الحيرة سايروس، وازداد قلقه نظراً لأنه لم يستطع إحراز أي نجاح ضد المدينة برغم انقضاء وقت طويل على حصارها.. وهنا خطرت له فكرة، أم لعل أحداً أشار عليه بها فعمد إلى تنفيذها بلا إبطاء.. وضع قسما من جيشه عند نقطة دخول نهر الفرات إلى المدينة ووضع القسم الآخر عند النقطة التي يخرج النهر فيها من المدينة. وأمر قواته بالسير في مجرى النهر عندما يصبح ماؤه ضحلا بدرجة كافية، أما هو فأخذ معه بعض فرق الجيش ومضى إلى النقطة التي سبق أن حولت نيتوكريس مجرى النهر إليها عندما أرادت إنشاء قنطرة على النهر، وفعل ما فعلته نيتوكريس من قبل إذ حول مجرى النهر بحفر قناة جانبيه جعلت مجرى النهر ذاته يصبح مخاضة سهلة العبور. وعلى أثر ذلك استطاع القسمان اللذان كانا ينتظران عند مدخل النهر إلى المدينة ومخرجه منها أن يخوضوا النهر ويدخلوا المدينة بغير أن يشعر أحد بهم.

وهكذا سقطت مدينة بابل المنيعة في أيدي الفرس بغير أن يرفع أحد سلاحه للدفاع عنها..

الفصل التاسع

مصر

على أثر موت سايروس ارتقى العرش ابنه قمبيز الذي أنجبه من الملكة كاساندانيه ابنة فارناسب. وقد مات كاساندانيه في عهد سايروس فحزن عليها حزنا عظيما، وأمر جميع رعاياه بأن يحذو حذوه في الحزن عليها. ونظراً لأن قمبيز كان يعتقد أن الأيونيين والأيوليان أعداء لأبيه فقد أخذهم معه في حملته على مصر، مع الشعوب الأخرى التي اصطحبها معه.

* * *

وهنا لابد لنا من كلمة عن مصر في ذلك العهد..

قبل حكم الملك بسماتيك كان المصريون يؤمنون بأنهم أقدم شعوب الأرض قاطبة. ولقد بذل بسماتيك محاولة للتأكد من ذلك، ولكن هذه المحاولة أثبتت أن الفرجانيين هم أقدم شعوب العالم.

ولكن المصريين كانوا أول من اكتشف السنة الشمسية وهم الذين قسموها إلى اثني عشر قسما وقد اكتسبوا هذه المعرفة من النجوم.

ونظراً لاختلاف مناخ مصر عن مناخ جميع بقاع الأرض، وأنهارها عن جميع أنهار العالم، فإن سكانها يختلفون في أخلاقهم، وعاداتهم وصفاتهم عن جميع الشعوب الأخرى؛ فالنساء يذهبن إلى الأسواق ويتاجرن، بينما يبقى الرجال للعمل بالمنزل، وبينما تحمل النساء الأشياء فوق أكتافهن فإن الرجال يحملونها فوق رؤوسهم، وهم يتناولون الطعام في الشوارع خارج المنازل، ولكنهم يصرفون شئونهم الخاصة على حدة بداخل المنازل. ولا يسمح للنساء بأداء أعمال الكهنة سواء في معابد الآلهة الذكور أو الآلهة النساء، وإنما يقتصر هذا العمل على الرجال وحدهم؛ ولا ينفق الأبناء على الآباء إلا إذا أرادوا ذلك، وأما البنات فملزمات بالإنفاق على أبويهن طواعية أو كراهية.

وللكهنة في الدول الأخرى شعور مرسلة، ولكنهم يحلقون رؤوسهم في مصر. وعندما يموت أحد أقارب المصري فإنه يرسل لحيته ويترك شعر رأسه ينمو طويلا. وهم أول شعب في العالم عرف الختان، وحينما يكتبون أو يحيون فإنهم يحركون أيديهم من اليمين إلى اليسار، ولهم نوعان من الكتابة أحدهما مقدس والآخر عام.

والمصريون مفرطون في التدين أكثر من أي شعب آخر، ويرتدون ثياباً من الكتان الأبيض النظيف. ويحلق الكهنة شعر أجسامهم يوما بعد آخر بدافع النظافة، ويستحمون مرتين يومياً بالماء البارد ومرتين كل ليلة..

ولقد قال لي كهنة مصر أن مينا كان أول ملك حكم مصر، وأنه هو الذي أنشأ ضفتين لحماية مدينة ممفيس من غوائل الفيضان؛ فقبل عهده كان فيضان النيل يطغى على التلال الرملية التي تحد مصر من ناحية ليبيا وعندما أقام الضفتين عند المنحنى الذي يتكون جنوب ممفيس بحوالي مائة فورلونج جفف المجرى القديم وأنشأ مجرى جديداً يتوسط خطي التلال الجانبين.

وقد حكم ثلثمائة وثلاثون ملكا مصر بعده. وقال لي الكهنة أنه كان من بين هؤلاء الملوك ثمانية عشر من الأثيوبيين وملكة مصرية واحدة أما بقية الملوك فكانوا من المصريين؛ وكانت الملكة تحمل نفس اسم ملكة بابل نيتوكريس، وقيل أنها اعتلت العرش بعد أخيها الذي كان ملكا على مصر فقتله الشعب ونصبها ملكة عليه. ولقد قررت نيتوكريس أن تثأر لأخيها، ورسمت لذلك خطة ماكرة أبادت بها عدداً كبيراً من المصريين ذلك أنها أنشأت صالة كبيرة جداً تحت الأرض وتظاهرت بأنها ستقيم حفلا لافتتاحها. ودعت لهذا الحفل جميع من كانت تعرف أنهم اشتركوا في التآمر على أخيها وقتله. وبينما كان المدعوون منهمكين في تناول الطعام فتحت الملكة قناة سرية كبيرة فتسرب منها ماء النهر وأغرق جميع من في القاعة. وبعد أن تم لها الثأر لأخيها تطهرت من الإثم الذي ارتكبته بإلقاء نفسها في كومة من الرماد.

وخلفها كثيرون من الملوك الذين لم يصيبوا أي خط من الشهرة، إلى أن تولى العرش الملك سيزوستريس، وكان أول ما فعله هو أن سير أسطولا

من السفن الحربية من الخليج العربي على طول بحر ارتريا، وكان يخضع الشعوب التي يمر بها إلى أن وصل في النهاية إلى بحر تتعذر الملاحة فيه بسبب قلة غوره، فعاد إلى مصر حيث حشد جيشاً جراراً وزحف براً عبر القارة مخضعاً كل دولة توجد في طريقه. وكان كلما صادف شعباً عنيداً يشتبك معه في القتال، ويقاتله ببسالة دفاعا عن حريته، يقيم أعمدة في بلاده يحفر عليها اسمه واسم بلاده، وكيف أنه جاء إلى هذه البلاد وأخضع أهلها بقوة السلاح، أما إذا استسلم الشعب بلا مقاومة فإنه– أي سيزوستريس– كان يقيم الأعمدة ويحفر عليها– بالإضافة إلى تلك المعلومات– رمزاً معينا يدل على أن هذا الشعب شعب من النساء مجرد من الصفات العسكرية.

ولقد اختفت الأعمدة التي أقامها سيزوستريس في الدول التي أخضعها كلها تقريباً، ولكني رأيت بعضها بنفسي في ذلك الجزء من سوريا المعروف بفلسطين، ولاحظت الرمز بوضوح.

وقال لي الكهنة المصريون أنه عند عودة سيروستريس إلى مصر ومعه جماهير كبيرة من الدول التي أخضعها، استقبله أخوه الذي كان الملك قد عينه نائباً عنه لحكم البلاد أثناء غيبته، ودعاه إلى وليمة حضرها هو وزوجته وأولاده. وعمد الأخ إلى تكديس كومة كبيرة من الأخشاب حول البناء الذي أقيمت المأدبة فيه، ثم أشعل فيها النار. وعندما اكتشف سيزوستريس ما حدث، تشاور مع زوجته في الحال، فنصحته بأن يضع اثنين من أولادهما الستة كقنطرة فوق النار يعبرها الباقون إلى الخارج ونفذ

الملك نصيحة زوجته، فاحترق اثنان من أبنائه ونجا الباقون، وبعدئذ عاد الملك إلى قصره، وثأر من أخيه.. وبعد ذلك عمد إلى استخدام عشرات الألوف من الأسرى في حفر شبكة القنوات المائية الكبيرة الموجودة الآن في مصر، وبذلك استطاع تغيير وجه البلاد.. وكانت غايته من ذلك إمداد سكان المدن البعيدة عن مجرى نهر النيل بالماء العذب بعد أن كانوا يشربون ماء الآبار.

ويقال أن سيزوستريس وزع الأراضي الزراعية على السكان، بعد أن قسمها إلى أجزاء مربعة متساوية المساحة. وكان يحصل على الجزء الرئيسي من دخل إيجار هذه الأراضي عاما بعد عام. وكان إذا اتفق وطغى النيل على جزء من أراضي أحد المواطنين، ذهب هذا المواطن إلى الملك وقص عليه ما حدث. وكان الملك يرسل حينذاك أشخاصاً للتأكد من الحقيقة وقياس القطعة التي أزالها النهر ومدى خسارة صاحبها ثم يخفض المطلوب منه تبعا لقيمة الخسارة. ولهذا فإنني أعتقد أن المصريين كانوا أول شعب عرف علم الهندسة الذي انتقل بعدئذ إلى اليونان. أما المزولة فاعتقد أن اليونان تلقوها عن البابليين.

ولم يكن سيزوستريس ملكا على مصر فقط، وإنما كان ملكا على أثيوبيا أيضاً، وكان هو الملك المصري الوحيد الذي حكم تلك البلاد، وخلف فيها– تذكاراً لحكمه– تماثيل حجرية هائلة أمام معبد فالكان. ولقد حاول داريوس– بعد ذلك بسنوات طويلة إزالة هذه التماثيل لوضع تماثيله

في مكانها ولكن كهنة المعبد منعوه من ذلك قائلين أن سيزوستريس المصري نجح في إخضاع الأسقوثيين، أما هو ففشل في ذلك.

وعلى أثر موت سيزوستريس، خلفه على العرش ابنه فيرون. ولم يكن رجلا عسكريا نظراً لأنه أصيب بالعمى بسبب الظروف التالية. كان النيل قد بدأ يفيض كالعادة، وكان الفيضان مرتفعاً جداً، فغمر الحقول بالماء، وغضب الملك، فالتقط رمحه وقذف به بعنف في مجرى النهر، وفي التو أصيب بمرض في عينيه، وبعد فترة فقد قوة إبصاره. واستمر ضريراً عشر سنوات، وأخيراً، وفي العام الحادي عشر وصلته نبوءة من باتو تقول "إن فترة عقوبته قد انتهت، وأنه يستطيع أن يستعيد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة حافظت على إخلاصها لزوجها، ولم تفضل عليه رجلا آخر". ومن ثم بادر الملك فغسل عينيه ببول زوجته، فلم يرتد إليه بصره، فمضى في التجربة باستخدام بول نساء أخريات، إلى أن شفاه بول إحداهن في النهاية. وعندئذ أمر بجمع جميع النساء اللاتي لم يشفه بولهن، بما فيهن زوجته، واحرقهن جميعاً، ثم اتخذ من المرأة التي شفاه بولها زوجة له..

الفصل العاشر

قصة رعمسيس

عندما مات بريتوس، خلفه رعمسيس على العرش. وقد أقام بعض الآثار من بينها البوابة الغربية بمعبد فالكان، والتمثالان اللذان يقفان أمام هذه البوابة. ولقد قال لي الكهنة إن الملك رعمسيس كان يملك ثروة هائلة لم يدانيه فيها أحد ممن سبقوه، ولكي يحافظ على هذه الثروة الهائلة، قرر أن ينشئ فرقة كبيرة من الأحجار المنحوتة، على أن يكون أحد جدرانها جزءاً من جدار قصره الخارجي. وبعد أن اطلع البناء على التصميم، قرر هذا أن يضع في هذا الجدار حجراً يستطيع رجلان أن يرفعاه من مكانه بسهولة. وعندما تم إنشاء هذه الغرفة، نقل الملك كنوزه وثروته إليها.. ومر زمن، وأصيب البناء بمرض، ولما أحس أن نهايته قد دنت استدعى ولديه، وقص عليهما قصة الحجر المتحرك في غرفة كنوز الملك، وحدد لهما موقعه بالدقة، وأمرهما بالاحتفاظ بالسر إلى أن يموت، وبعدئذ يمكنهما أن يصيبا من ثروة الملك ما يريدان. وقد كان. فلما مات البناء، ذهب ابناه إلى الغرفة السرية، واستوليا على مبلغ كبير من المال المحفوظ بها.

وحينما زار الملك غرفة كنوزه، دهش عندما لاحظ أن المال الموجود في بعض الآنية نقص كثيراً، ولكنه لم يستطع أن يركز ريبته في أحد لأن أختام الغرفة سليمة ومتاريسها في حالة جيدة. ومع ذلك فإنه يلاحظ،

كلما زار الغرفة، توالى نقص الأموال المحفوظة بها. والواقع أن اللصين لم يكفا عن السرقة، وأخيراً قرر الملك أن ينصب بعض الفخاخ بالقرب من أوعية حفظ النقود. فعندما جاء اللصان لمعاودة السرقة، سقط أحدهما في أحد تلك الفخاخ. وحينما أدرك أنه من الهالكين، نادى أخاه، وحدثه بما وقع له، وناشده أن يبادر بقطع رأسه. وأخذها معه حتى لا يعرف الملك شخصيتهما فيقضي عليهما معاً. وتحت ضغط الظروف وافق الأخ على فصل رأس أخيه عن جسده. ثم أخذها معه إلى المنزل.

وفي فجر اليوم التالي، جاء الملك إلى الغرفة. فأدهشه أن يجد جثة اللص في الفخ بدون رأس، بينما المزاليج والأختام سليمة. وأمر الملك بتعليق جثة اللص في الساحة. وعين عدداً من جنوده لمراقبة أي شخص يقترب منها والقبض عليه إذا تبين من تصرفاته أنه يعرف صاحب الجثة وعندما سمعت أم اللص بعرض جثة ابنها، آلمها ذلك أشد الألم وراحت تحث ابنها الثاني ليستعيد الجثة. وهددته بفضح أمره إن لم يفعل.

وأسقط في يد اللص الثاني، وأخيراً رضخ لطلب أمه، وراح يفكر في وسيلة تمكنه من الاستيلاء على جثة أخيه بغير أن يضبطه الحراس. وأخيراً هداه تفكيره إلى الحيلة التالية: وضع قربتين أو ثلاث مملوءة بالنبيذ فوق الحمير، وقادها أمامه نحو المكان الذي يوجد الحرس به. وتظاهر بأنه يعيد توازن بعض القرب، وخفف رباطها، فبدأ النبيذ ينسكب على الأرض. وهنا أخذ اللص يلطم رأسه بيديه، ويصرخ. وعندما رأى الحرس النبيذ ينسكب على الأرض فرحوا وتهللوا، واندفع كل منهم نحو الحمير وهو

يحمل وعاء ليملأه بالنبيذ. فتظاهر اللص بالغضب وراح يشتمهم. فبذلوا قصارى جهدهم لتهدئة ثائرته، إلى أن هدأ. وقاد اللص حميره إلى جانب الطريق، وتظاهر بأن يعيد تنظيم القرب، وفي الوقت ذاته راح يثرثر مع الحراس إلى أن اطمأنوا إليه فدعاهم لشرب بعض الخمر فوافقوا شاكرين..

وحينما لعبت الخمر برؤوس الحراس غلبهم النعاس على أمرهم، وتريث اللص إلى أن أظلمت الدنيا ثم نقل الجثة إلى المنزل.

ولما عرف الملك بنبأ سرقة جثة اللص تملكته الحيرة والغضب، فقرر اقتناص هذا اللص الذكي مهما كلفه ذلك من ثمن.. فأرسل ابنته إلى المواخير العامة، بعد أن أمرها باستقبال أي زائر، وأن تطلب إليه أن يحدثها عن أمهر عمل وأرذل عمل أتاه في حياته. فإذا حدثها أحدهم بقصة اللص، فعليها أن تستبقيه وألا تسمح له بالانصراف. ونفذت الابنة أمر أبيها، وما كاد اللص يسمع القصة حتى فطن إلى سببها فقرر أن يتحدى ذكاء الملك ورسم لذلك خطة: حصل على جثة رجل مات حديثاً وقطع أحد ذراعيه من عند الكتف وخبأه تحت ردائه.

ثم ذهب لزيارة بنت الملك. فعندما ألقيت عليه السؤال المعهود، أجاب بأن أفظع عمل ارتكبه هو قتل أخيه وفصل رأسه عن جسده عندما سقط في فخ نصبه لي الملك في غرفة كنوزه، وأنه استطاع أن يسخر من حرس الملك ويسرق جثة أخيه. وما كادت ابنة الملك تسمع ذلك حتى

تعلقت به، إلا أنه كان قد انتهز فرصة ظلام الغرفة، وقدم لها ذراع الميت. فأمسكت بها بعنف. بينما لاذ هو بالفرار.

وما كاد الملك يسمع نبأ خدعة اللص الجديد حتى أكبره. فبعث رسلا إلى جميع المدن يعد فيها بالعفو عن اللص ومنحه مكافأة ضخمة إذا كشف عن شخصيته.. فاستغل اللص وعد الملك وتقدم إليه بشجاعة وأعجب رعمسيس بذكاء اللص وسعة حيلته. فعفا عنه وزوجه ابنته..

ولقد قال لي الكهنة أن المصريين تمتعوا برخاء كبير أثناء حكم رعمسيس، ولكن خليفته كان رجلا شريراً، فأغلق المعابد ومنع المصريين من تقديم القرابين والذبائح للآلهة. وسخرهم في بناء الأهرامات.. فلما مات وتولى ابنه العرش، أعاد فتح المعابد، وأزال كل معالم الظلم والكبت التي اتسم بها حكم أبيه..

الفصل الحادي عشر

قمبيز

توالى الملوك على مصر، إلى أن اعتلى عرشها الملك أمازيس..

وفي عهد هذا الملك سير الملك قمبيز ابن سايروس حملته على مصر التي أشرنا إليها في مستهل الفصل التاسع. وكان جيش قمبيز مؤلفاً من جنسيات مختلفة تنتمي إلى الدول التي أخضعها لحكمه، ومنهم الأيوينون والأيوليك اليونانيون. أما سبب الغزو، فهو أن قمبيز أرسل للملك أمازيس– بناء على نصيحة رجل مصري غاضب على أمازيس لأنه جرده من زوجته وأولاده ونفاه إلى فارس– يطلب يد ابنته، فلما صارح الرسول الملك أمازيس برغبة الملك قمبيز تملكته الحيرة الشديدة، فقد كان يخشى قوة الفرس المتزايدة، ولم يدر هل يوافق على هذا الزواج أم يرفضه، لأنه كان واثقاً من أن قمبيز لن يتقبل ابنته كزوجة ولكن كمحظية وأخيراً استقر رأيه على أن يرسل له الأميرة تيتيتس ابنة الملك المتوفى أريس، وهي امرأة طويلة القامة، رائعة الجمال، كانت آخر الأحياء من أسرة أبيها. وجاء أمازيس بهذه المرأة، وألبسها أفخر الثياب، ومنحها حلياً وجواهر ثمينة، ثم أرسلها إلى فارس كما لو كانت ابنته، وعندما استقبلها قمبيز وناداها باسم أبيها قالت له: "مولاي يبدو لي أنك لم تفطن إلى الخدعة التي دبرها لك

أمازيس "وقصت عليه ما فعله أمازيس" فثارت ثائرة قمبيز، وسير جيوشه لغزو مصر..

تلك هي قصة غزو مصر كما رددها الفرس، إلا أن هناك قصة أخرى تقول أن أحد جنود أمازيس المرتزقة، وكان اسمه فينس، وكان مقاتلا باسلا، شديد الحكم، اختلف مع مولاه، فهجر خدمته، وهرب إلى فارس في الوقت الذي كان قمبيز يفكر فيه في الهجوم على مصر. فأفضى إليه بمعلومات ثمينة ونصحه بسلوك الصحراء.

وأوفد قمبيز رسولا لملك بلاد العرب يستأذنه في التصريح له بعبور الصحراء بجيشه. فوافق ملك العرب على ذلك، وتعاهد هو وقمبيز على الإخلاص للوعد.

واتفق أن مات أمازيس في تلك الأثناء، وارتقى ابنه بسامنيتوس عرش مصر، وحينما سمع بقدوم قمبيز لغزو بلاده حشد جيشه لملاقاته..

وعبر الفرس الصحراء، وأقاموا معسكرهم بالقرب من معسكر الجيش المصري الذي أقيم في مكان قريب من النيل اسمه بليوسياك. وكان المرتزقة في جيش مصر قد غضبوا لخيانة زميلهم قنيس، ولما كان هذا قد خلف أولاده في مصر، فقد أحضروهم إلى معسكر الجيش المصري وقتلوهم أمام عيني أبينهم، ثم اشتبكوا مع الفرس في قتال عنيف، أسفر عن سقوط ضحايا كثيرة من الجانبين، وأخيراً انهزم المصريون..

ولقد رأيت منظراً عجيباً في المكان الذي دارت فيه رحى المعركة. كانت عظام القتلى مبعثرة في كومتين على أرض ساحة القتال، إحداهما- وهي عظام جنود الفرس- في جانب، والأخرى- وهي عظام جنود مصر- في الجانب الآخر. وقد تبينت ظاهرة غريبة، فلو أنك أمسكت بحجر وضربت به جمجمة أحد جنود الفرس لتهشمت على الفور. أما جماجم الجنود المصريين فكانت من الصلابة بحيث يتعذر تحطيمها وقد قيل في تعليل ذلك إن المصريين يحلقون رؤوسهم في مرحلة مبكرة من الطفولة، وهكذا فإن تأثير الشمس على العظام يكسبها صلابة. وهذا السبب نفسه يقلل من حالات الصلع بين المصريين عنها في أية دولة أخرى. وهذا هو السبب في صلابة جماجم المصريين. أما الفرس فيرسلون شعورهم ويرتدون عمائم ولهذا تكثر بينهم حالات الصلع، وتكون جماجمهم هشة.

ما كاد المصريون يهزمون حتى تراجعوا إلى ممفيس حيث تحصنوا بداخل أسوارها، فأوفد قمبيز رسولاً عن طريق النهر يدعوهم للتسليم، وما كاد المصريون يرون الرسول حتى تدفقوا من القلعة ودمروا السفينة التي كان يركبها ومزقوا بحارتها إرباً إرباً، فحاصر قمبيز مدينة ممفيس إلى أن استسلمت له، وهنا خاف الليبيون على مصير بلادهم المتاخمة لمصر. فسلموا لقمبيز بلا قتال. وقبلوا دفع جزية كبيرة، كما أرسلوا له هدايا كثيرة.

وبعد سقوط قلعة ممفيس بعشرة أيام، أراد قمبيز أن يختبر روح بسامنيتوس ملك مصر الذي لم يكن قد انقضى على ارتقائه العرش أكثر

من ستة أشهر، فأمر بوضعه في أحد الضواحي ومعه كثيرين من المصريين، وعرضه للإهانة.

فبدأ بأن أخرج ابنة الملك في المدينة وهي مرتدية ثياب الرقيق، وتحمل جرة لتملأها ماء. وكانت برفقتها كثيرات من العذارى بنات النبلاء وهن يرتدين ثياباً مماثلة.

وعندما وصلت الفتيات إلى المكان الذي احتجز فيه آباؤهن، انفجرن نائحات باكيات، فبكى جميع النبلاء وناحوا بدورهم، أما الملك فلم يذرف دمعة واحدة، وإن خفض رأسه إلى الأرض. وبعد مرور موكب الفتيات، جاء ابن الملك ومعه ألفان من الشبان المصريين في مثل سنه وقد لفت الحبال حول أعناقهم، ووضعت كمامات على أفواههم، وكانوا جميعاً في طريقهم للإعدام انتقاماً للرسول الذي قتل المصريين. ورأى الملك بسامنيتوس ابنه وهو يساق إلى الموت.

ولكنه ظل رابط الجأش برغم العويل والنحيب الذي ارتفع من حوله. وبعد مرور هذا الموكب رأى الملك الأسير رجلا عجوزاً كان صديقاً مقرباً إليه وقد تجرد من ثيابه وراح يستجدي.

وهنا انفجر بسامنيتوس باكياً: وحينما أبلغ الأمر لقمبيز تولته الدهشة. وأرسل من يسأل بسامنيتوس عن سر تصرفه هذا فأجاب الملك الأسير: "يا ابن سايروس، لقد جل خطبي على البكاء. ولكن مصير صديقي يستحق هذا البكاء.

فحينما ينحدر رجل من مكانة مرموقة إلى الحضيض بحيث يضطر للاستجداء، فإن الإنسان لا يملك إلا أن يبكي من أجله".. وعندما أبلغ هذا الرد لقمبيز رق قلبه، وأصدر أمره بالعفو عن أبناء بسامنيتوس وبناته وأمر بإحضار الملك الأسير إليه.

ولكن الرسل تأخروا، فأدى ذلك إلى قتل ابن بسامينتوس ولكنهم أحضروا الملك نفسه أمام قمبيز الذي سمح له بالإقامة معه. وعامله بالحسنى جريا على مأثور عادات الفرس.

الفصل الثاني عشر

أعمال قمبيز

وبعد سقوط مصر قرر قمبيز القيام بثلاث حملات، أحداها ضد القرطاجنيين، والثانية ضد الآمونيين، والثالثة ضد الأثيوبيين الذين كانوا يقيمون في ذلك الجزء من ليبيا المتاخم للبحر الجنوبي. ورأى أن خير ما يفعله هو أن يرسل أسطوله ضد قرطاجنة، وأن يرسل جزءاً من جيشه البري لمهاجمة الآمونيين، بينما يذهب جواسيسه إلى أثيوبيا بدعوى تقديم هدايا لملكها، وإن كانت مهمتهم الأساسية ملاحظة كل ما تقع عليه عيونهم.

وبينما كان قمبيز يعمل على إيجاد بعض من يلمون باللغة الأثيوبية لمرافقة رسله، أصدر أمره للأسطول بالإبحار لغزو قرطاجنة، ولكن الفينيقيين رفضوا الانصياع لهذا الأمر قائلين إنهم قرطاجنيون أصلا وبذلك عجز بقية رجال الأسطول عن تسييره. وبذلك أفلتت قرطاجنة من استعباد الفرس لها.

وعندما عثر قمبيز على الرجال الذين يعرفون اللغة الأثيوبية، أفضى إليهم قمبيز بما يريد منهم أن يبلغوه لملك أثيوبيا، وحملهم بالهدايا التي يريد تقديمها إليه.

وحينما وصل الوفد إلى أثيوبيا، قدم الهدايا التي معه لملك البلاد، وقال له رؤساؤه: "لقد أوفدنا قمبيز ملك الفرس إليك لنبلغك رغبته في أن يصبح صديقك وحليفك، وعهد إلينا بالتفاوض معك في هذا الشأن وبتقديم هذه الهدايا تأكيدا لرغبته هذه. ولما كان ميرون الأثيوبي يعلم أنهم قادمون للتجسس، فقد أجاب بقوله: "إن ملك الفرس لم يرسلكم بهذه الهدايا لأنه يرغب فعلا في أن يصبح صديقاً حميما لي، وإنما أرسلكم لتقصي شئون بلادي. ثم أن ملككم ليس رجلا عادلا، وإلا لما اغتصب أرض غيره، ولما فرض الذل والعبودية على شعب لم يخطئ في حقه. فخذوا له هذا القوس، وقولوا له...

إن ملك أثيوبيا ينصح ملك فارس– بأنه حينما يستطيع الفرس أن يطلقوا السهام القوية كهذا السهم بمثل هذه السهولة، فلا بأس عليه أن يأتي ومعه جيش يتمتع رجاله بقوة خارقة ليقابل شعباً عريقاً– وإلى ذلك الحين، يحسن بقمبيز أن يشكر الآلهة لأنها لم تدخل في عقول الأثيوبيين فكرة الاستيلاء على بلاد ليست لهم"..

وما كاد ينتهي من حديثه حتى قدم القوس لأعضاء الوفد.

وأكرم ملك أثيوبيا وفادة الرسل، وأطلعهم على كثير من غرائب بلاده ثم طلب إليهم العودة إلى مصر.

وعندما عاد الجواسيس إلى مصر، وقدموا تقريرهم لقمبيز استولى عليه غضب جائح. وبادر فعبأ جيشه، وزحف به لغزو أثيوبيا، بغير أن

يتخذ الحيطة لتموين جيشه بالمؤن، أو بفكر في أنه ذاهب لغزو بلاد نائية جدا. ولكنه لم يصحب اليونانيين معه واكتفى بالقوة البرية. وعندما مر بطيبة، ترك خمسين ألف جندي من جيشه الرئيسي لمهاجمة الآمونيين بعد أن أمرهم بأسرهم وإحراق معبد جوبيتر. واستمر هو في الزحف مع بقية جيشه. وقبل أن يقطع خمس المسافة إلى أثيوبيا نفذت مؤن جيشه، وبدأ الجيش يقتات الحيوانات الضارية؛ ولو كان قمبيز حكيما لعاد بجيشه إلى مصر، ولكنه لم يبال بما بدأ يصادفه من صعاب واستمر في الزحف، فاضطر جنوده إلى أكل الأعشاب والحشائش حتى لا يهلكوا جوعاً. وما لبث الجيش أن وصل إلى منطقة رملية لا حياة فيها. فأقدم رجاله على عمل ينفر منه الآدميون. بدأ بعضهم يتراهنون، فمن خسر الرهان. قتله زملاؤه وأكلوا لحمه مع زملائهم، وعندما سمع قمبيز بهذه الأعمال ركبه الفزع، وقرر العدول عن غزو أثيوبيا: فسلك في تراجعه الطريق الذي سلكه عند قدومه بعد أن فقد أعدادا هائلة من جنوده، فلما بلغ ممفيس سمح لليونانيين الذين كان قد استبقاهم بالعودة إلى بلادهم وبهذا فشلت حملته على أثيوبيا.

أما الحملة ضد الآمونيين فبدأت رحلتها عن ممفيس إلى الواحات التي يسكنها الساميون. وتبعد هذه الواحة مسافة طويلة عن طيبة يستغرق قطعها مسيرة سبعة أيام عبر أرض رملية يطلق عليها بلغتنا "جزيرة المباركين". ومن عجب أن الحملة التي خرجت للزحف على طيبة اختفت في الطريق ولم يسمع أحد عنها شيئاً بعد ذلك.

ويقول الآمونيون في تفسير ذلك أنه ما كادت الحملة تتوسط الطريق حتى هبت عاصفة قاتلة من الجنوب اختفى الجيش كله بين دواماتها الرملية فهلك رجاله جميعاً.

وحوالي هذا الوقت وصل قمبيز إلى ممفيس، وظهر (أبيس) للمصريين، وما كاد هذا الإله يظهر حتى ارتدى المصريون أحسن ثيابهم وراحوا يحتفلون بالمناسبة السعيدة. فاغتاظ قمبيز لذلك واستدعى الضباط المسئولين عن المدينة، وأخذ يستجوبهم في السر في فرح المصريين بعد عودته من رحلته الفاشلة وضياع معظم قواته، فأجاب الضباط بأن المصريين متهللون لأن إلهاً من آلهتهم ظهر بعد طول احتجاب؛ وحينما سمع قمبيز ذلك قال لهم أنهم كاذبون، وماداموا كاذبين فقد حق عليهم جميعاً الموت.

وإذ قتل قمبيز الضباط استدعى الكهنة وألقى عليهم السؤال نفسه فتلقى منهم الإجابة ذاتها وعندئذ أمرهم بإحضار أبيس إليه؛ فذهبوا لإحضاره؛ وكان هذا الإله عجلا ولدته بقرة لم تنجب بعده شيئاً، ويقول المصريون القدماء إن ناراً تنزل من السماء على هذه البقرة فتجعلها تحمل أبيس. وكان أبيس أسود اللون، في جبهته نقطة بيضاء، وعلى ظهره رسم نسر، وشعر ذيله مزدوج.

وعندما عاد الكهنة ومعهم أبيس؛ جن جنون قمبيز، واستل خنجره وهوى به على بطن الحيوان ولكنه أخطأه وأصاب فخذه وعندئذ ضحك وقال للكهنة:

"أيها الحمقى، هل تظنون أن الآلهة من لحم ودم! لكنكم ستدفعون الثمن غالياً لأنكم سخرتم مني".

ثم أمر بعض ضباطه بجلد الكهنة وقتلهم إذا استمر المصريون في احتفالاتهم وابتهاجهم. وهكذا أوقفت هذه الحفلات في طول البلاد وعرضها، بينما جلد الكهنة. أما أبيس فظل جريحاً في معبده فترة من الوقت ثم نفق، فدفنه الكهنة سراً بغير علم قمبيز.

ولقد كان المأثور عن قمبيز أنه مصاب بخلل عقلي. ولكن المصريين يقولون أن جنونه ازداد منذ ذلك الحين. وكان أول عمل جنوني أقدم عليه هو قتل أخيه سمرديس الذي كان قد أعاده إلى فارس بدافع الغيرة، وذلك لأنه استطاع أن يشد القوس الذي أرسله ملك أثيوبيا (والذي فشل جميع الفرس في شده) مسافة لا تزيد على إصبعين. وكان قمبيز قد علم- بعد رحيل أخيه إلى فارس- أن رسولاً جاءه من فارس وقال له أن سمرديس اعتلى العرش هناك وقد بلغ رأسه عنان السماء!!

وهنا استبد الخوف بقمبيز خشية أن يسعى أخوه لقتله والتخلص منه- فأوفد بركساسيس، وهو رجل كان يثق به ثقة عمياء- إلى فارس، وأمره بقتل سمرديس. وقد نفذ الرسول المهمة. أما العمل الجنوني الثاني

الذي ارتكبه قمبيز، فكان قتل أخته التي جاءت معه إلى مصر كزوجة له برغم مجافاة زواج الأخ من الأخت لتقاليد الفرس، ولكنه أرغم القضاة الفارسيين على إصدار فتوى بمشروعية هذا الزواج. ولم يكتف قمبيز بزواج أخته هذه، وإنما تزوج أخته الثانية وهي التي رافقته إلى مصر وماتت على يده وكان سبب موتها أن زوجها قمبيز لاحظ أنها حزنت لموت أخيها سمرديس.

ولا عجب فقد كان قمبيز مصابا بالصرع.

ولم يقتصر جنون قمبيز على أفراد أسرته، وإنما تعداه إلى الآخرين، فقد قتل ابن صفيه وموضع ثقته بركساسيس الذي خلصه من أخيه لا لشيء إلا لأنه أراد أن يثبت أنه يستطيع أن يصيب قلب أي إنسان بسهم يطلقه من قوسه، ولم يجد أمامه إلا هذا الشاب التعس، كما أنه وأد أثني عشر نبيلا فارسيا أحياء بغير أن يوجه إليهم أي اتهام..

وحينما لاحظ كردسيوس ملك ليديا السابق طغيان قمبيز وتماديه في إراقة الدماء، حاول أن يبذل له النصح، فجن جنون قمبيز، وراح يوبخ كردسيوس بكل عنف، ثم التقط قوسه ليطلقه عليه، ولكن كردسيوس غادر الغرفة ركضاً وهرب، فلما تبين لقمبيز أنه لن يستطيع قتله بقوسه، أمر خدمه بمطاردته وقتله. ولكن الخدم كانوا يعرفون طباع مولاهم جيداً، فلم ينفذوا الأمر، وخبأوا كردسيوس، لعل قمبيز يثوب إلى رشده، فيعفو عنه حينما يعلم أنه على قيد الحياة، والواقع أن قمبيز سر حينما علم أن

كردسيوس لا يزال حياً يرزق، إلا أنه قتل الخدم لأنهم لم ينفذوا أمره فور صدوره.

وهكذا أخذت فظائع قمبيز تتوالى أثناء إقامته في ممفيس، فراح يفتح المقابر ويتسلى برؤية الجثث فيها برغم ما في ذلك من انتهاك لحرمة الموتى وإيذاء لشعور المصريين.

الفصل الثالث عشر

موت قمبيز

بينما كان قمبيز بن سايروس يتخبط في جنونه وهو لا يزال يتسكع في مصر، تمرد عليه الأخوان ماجي؛ وكان قمبيز قد ترك أحدهما في فارس للإشراف على شئون أسرته، فكان هو أول الأخوين الثائرين ذلك أن هذا الثائر كان يعرف أن سمرديس قد قتل، وأن موته أخفى عن الجميع، فلم يكن يعلم به غير عدد قليل من الفرس، بينما كان السواد الأعظم منهم لا يزال يعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة، وعلى هذا الأساس وضع الثائر خطته، وضرب ضربة باسلة تستهدف الحصول على التاج. وكان له أخ كما قلت من قبل، وشاء القدر أن يكون هذا الأخ شبيهاً شبهاً بسمرديس بن سايروس الذي قتله أخوه قمبيز؛ ولم يقتصر التشابه بين هذا الأخ وسمرديس على الشكل، بل كانا متماثلين أيضاً في الاسم، وبعد أن أقنعه أخوه باتزيتس بأنه سيتولى إتمام كل شيء بنفسه أخذه وجعله يجلس على العرش الملكي. وبعد أن فعل ذلك أوفد الرسول إلى جميع الأماكن؛ إلى مصر وإلى كل مكان، ليعلنوا القوات بأن عليهم- منذ الآن فصاعدا- أن يطيعوا سمرديس بن سايروس لا قمبيز.

ونفذ الرسل الأمر الذي صدر إليهم في فارس؛ أما الرسول الذي أوفد إلى مصر فما كاد يصل إلى اجبتانا في سوريا ويجد قمبيز وقواته هناك

حتى اندفع في قلب الجيش وأذاع التصريح الذي طلب إليه باتزيثس إذاعته؛ وما كاد قمبيز يسمع التصريح حتى اعتقد بصحته كما اعتقد أن بركسابس خدعه ولم يقتل أخاه سمرديس فالتفت إليه متسائلا فقال هذا إن النبأ غير صحيح لأن سمرديس مات تنفيذاً لمشيئته وقال بركسابس لقمبيز: "في رأيي أنه يحسن بنا أن نبعث من يجيء لنا بهذا الرسول وأن نستجوبه بدقة عمن أمره بمطالبتنا بإطاعة الملك سمرديس".

ووافق قمبيز على رأي بركسابس وبعث ببعض رجاله للحاق بالرسول فلما جيء به ساله بركسابس "لقد أسمعتنا رسالة قلت أنها من سمرديس ابن سايروس؛ والآن أجب على سؤالي بالصدق واذهب آمناً في طريقك هلا ستقبلك سمرديس، وأصدر إليك أوامره أم أبلغك هذه الأوامر عن طريق أحد ضباطه؟ فأجاب الرسول: واقع الأمر أن عيني لم تقعا على سمرديس بن سايروس منذ قاد قمبيز جيشه إلى مصر أما الرجل الذي أصدر إلى الأمر فهو ماجوس الذي عهد إليه قمبيز بتصريف شئون أسرته ولكنه قال لي أن سمرديس بن سايروس أرسل إليكم هذه الرسالة ولم يكن فيما قاله الرسول شيء غير الصدق. وعندئذ قال قمبيز لبركسابس أنك بريء من كل ذنب يا بركسابس لأنك لم تتخاذل عن تنفيذ أمري؛ لكن قل لي من هو الفارس الذي يستطيع أن ينتحل اسم سمرديس ويتمرد علي؟ فأجاب بركسابس أعتقد يا مولاي أنني استطعت إدراك الموقف كله. إن الرجال الذين تمردوا ضدك هم الأخوان ماجي باتزيثس الذي عهدت إليه بالإشراف على شئون أسرتك وأخوه سمرديس.

وما كاد قمبيز يسمع اسم سمرديس حتى أيقن من كلمات بركسابس وتذكر حلمه القديم الذي رأى سمرديس فيه جالساً على العرش وقد وصل رأسه إلى السماء. وعندما أيقن أنه قتل أخاه بلا داع؛ بكى وتحسر ثم انتفض فجأة وعول على السير إلى فارس على رأس جيشه للقضاء على ثورة الأخوين ماجي. ولكنه ما كاد يثبت حتى انحل زرار غمد سيفه. فانغرس سنه في فخذه وجرحه في نفس الموضع الذي سبق له أن طعن العجل أبيس فيه. وعندما شعر قمبيز بأنه أصيب بالجرح الذي سيقضي عليه سأل عن اسم المكان الذي يوجد فيه، فلما قيل له أنه اجبتانا تذكر النبوءة التي سبق أن قالها له أحد العرافين من أنه سيموت في اجبتانا، فانتابه فزع قاتل، وقال بصوت متهدج: إذن فقد قدر لقمبيز ابن سايروس أن يموت هنا!!

وتسمم الجرح. وبعد أيام مات قمبيز..

ولم يجرؤ أحد ممن كانوا يعلمون بقصة مصرع سمرديس على المجاهرة بالحقيقة خشية أن يتهم بالاشتراك في قتله.

وحكم سمرديس البلاد وهو مطمئن بينما ظل الشعب يعتقد أنه سمرديس بن سايروس. وانقضت على هذا سبعة شهور وهي الشهور التي تكمل حكم قمبيز ثماني سنوات.. ثم.....

الفصل الرابع عشر

كيف ارتقى داريوس العرش

اكتشفت حقيقة سمرديس في الشهر الثامن من ارتقائه العرش على النحو التالي:

كان هناك رجل اسمه أوتانس بن فارناسيس يتمتع بثراء ومكانة رفيعة تضارع أعظم رجال فارس جميعاً؛ وكان اوتانس هذا أول من ساورته الريبة في أن الملك الجالس على العرش ليس هو سمرديس ابن سايروس، وكان مما دفعه إلى هذا الاعتقاد أن الملك لم يغادر القلعة منذ تتويجه، كما أنه لم يستدع أي نبيل من نبلاء الفرس للمثول أمامه. وما أن قويت ريبته حتى شرع يعمل للتأكد من الحقيقة.. كانت إحدى بناته واسمها (فديما) زوجة لقمبيز، وقد استولى ماجوس على هذه الزوجة بين ما استولى عليه من زوجات قمبيز. ومن ثم أرسل اوتانس إلى ابنته هذه رسالة يسألها فيها:

"مع من تنامين في فراش واحد؟ هل من سمرديس بن سايروس أم مع رجل آخر؟".

وأجابت فديما على ذلك بقولها إنها لا تعلم لأنها لم تسبق لها رؤية سمرديس بن سايروس من قبل" فبعث إليها أبوها برسالة أخرى يسألها فيها: "إذا كنت لا تعرفين سمرديس بن سايروس فاسألي الملكة أتوسا مع من

تعيش– لأنها لا ريب تعرف أخاها". وأجابت ابنته على ذلك بقولها: "ليس في استطاعتي أن أتحدث مع الملكة أتوسا، ولا مع أية امرأة تقيم في القصر، لأنه ما كاد ذلك الرجل يرتقي العرش حتى فصل زوجاته جميعاً عن بعضهن، وجعل كل واحدة منهن تقيم في جناح خاص".

وزاد هذا الرد شكوك أوتانس، ورأى أن يحسم الأمر تماماً، فبعث لابنته بالرسالة التالية: "يا ابنتي. إنك من دم نبيل، ولهذا فإنك لن تترددي في التضحية من أجل فارس.. إذا لم يكن هذا الرجل هو سمرديس بن سايروس، وكان الرجل الذي ارتاب فيه، فيجب ألا يترك ليكون سيدك وسيد الفرس جميعاً بغير أن يلقى جزاءه. والآن أفعلي ما سأقوله لك.. عندما يجيء دورك لیبیت الملك معك ليلة، تحسسي أذنيه عندما ينام وتأكدي هل له أذنان أم لا. فإذا كانت له أذنان فهو ولا شك سمرديس بن سايروس، أما إذا لم تجدي له أذنين فاعلمي أنه سمرديس ماجوس".. وعندما قضى سمرديس ليلته مع ابنة أوتانس تحسست أذناه فلم تجد له أذنين.. فانتظرت حتى طلع اليوم التالي وبعثت تبلغ أباها بما حدث.

وبادر أوتانس فاتصل باثنين من اخصائه، اسباتنس وجوبراياس وأفضى إليهما بالسر كله. وكان الرجلان قد ارتابا في الأمر بدورهما، فعندما صارحهما أوتانس بالأسباب التي جعلته يوقن أن الجالس على عرش الفرس ليس سمرديس بن سايروس. قرر كل منهم أن يصطفي شخصاً آخر من الفرس ويفضي إليه بالسر؛ فاختار أوتانس صديقه انتافرنس، واختار جوبراياس صديقه مجابايزس، واختار اسباتنس صديقه هايدرانس.

وبعد أن أصبح عددهم ستة، وصل داريوس بن هايستاسبس قادما إلى سوسا من فارس حيث كان أبوه يشغل منصب حاكم. ورأى الستة المتآمرين في وصوله فرصة لضمه إليهم.

وبعد أن أصبحوا سبعة، تبادلوا القسم على الولاء والكتمان، وأخذوا يتبادلون الرأي في الموقف، وعندما جاء دور داريوس للإفضاء برأيه قال: كنت أعتقد أن أحداً غيري لم يفطن إلى حقيقة أمر هذا الملك الدعي، ولهذا جئت إلى هنا على جناح السرعة لأقتل هذا الملك المغتصب لكن يبدو أن الأمر معروفا لكم جميعاً، ولهذا فإنني أطالب بقتل سمرديس ماجوس بلا إبطاء".

وحينما حاول الآخرون– وكانوا جميعاً من كبار السن– التلكؤ بدعوى ضرورة التزام الحذر، حذرهم داريوس من هذا التلكؤ وهدد بالذهاب بمفرده لقتل سمرديس وإعلان الحقيقة للشعب.

وإذ تبين لاوتانس أن داريوس جاد في تهديده بدأ يتراجع عن رغبته في التريث.. وحذا الآخرون حذوه.

وبينما كانت هذه المؤامرة في حيز التدبير. وقعت الحوادث التالية: كان الأخوان ماجي يفكران في أحسن وسيلة للتصرف. وقررا أن يتخذا من بركسابس صديقاً لهما، نظراً لأنهما كانا يعلمان إلى أي مدى قسا قمبيز عليه حينما قتل ابنه بسهم أطلقه من رمحه أمام عينيه، كما كانا يعلمان أن سمرديس بن سايروس مات بيديه، فضلا عن أنه يحتل مكانة رفيعة بين

الفارسيين. ومن ثم استدعياه واتخذا منه صديقاً؛ واستطاعا أن ينتزعا منه وعداً، ثم قسما بالتزام الصمت حيال خدعتهما للفرس، وتعهدا– مقابل ذلك– بأن يقدما له آلاف الهدايا من كل نوع ولون وعرضا عليه أن يدعوا الفرس إلى اجتماع عام في ساحة القصر، وأن يقف هو فوق أحد القباب ويطالب الشعب بأن يؤيد حكم سمرديس بن سايروس دون غيره. وقد لجأ الأخوان ماجوس إلى هذا الإجراء لعلهما يقويان مكانة بركسابس الرفيعة بين الشعب.

وأبدى بركسابس استعداده لتنفيذ هذه الخطة؛ ومن ثم جمع الأخوان ماجي الشعب ووضعا بركسابس فوق أحدى القباب العالية، وطلبا إليه أن يخطب في الجماهير.. وكأنما نسى الرجل الدور الذي طلب إليه أن يلعبه، أو تناساه، فراح يحدث الشعب بما حدث وبما آل إليه مصير سمرديس بن سايروس، وكيف أنه قتله بناء على أمر أخيه قمبيز.

وختم بركسابس خطابه مفضياً إلى الشعب بأن الجالس على عرش بلاده هو سمرديس ماجوس، وصب اللعنات على رأس الفرس إذا لم يستعيدوا مملكتهم من الغاصب.

وعلى أثر ذلك قذف بركسابس بنفسه من حالق، فسقط ميتاً.

وفي تلك الأثناء كان السبعة المتآمرون قد قرروا الهجوم على القصر بلا إبطاء. فانطلقوا منه غير عالمين بما فعله بركسابس. وبينما هم في

الطريق سمعوا بما حدث، فتوقفوا عن التقدم وراحوا يتشاورون معاً، وأخيراً استقر رأيهم على المضي في تنفيذ خطتهم.

وعندما وصلوا إلى بوابة القصر لم يتعرض لهم أحد لأن الجميع كانوا يعرفون سمو مكانتهم، فلما وصلوا إلى الساحة الكبرى التقوا ببعض الخصيان الذين يتولون إبلاغ رسائل الملك واستوقفهم الخصيان وسألوهم عما يريدون، فلم يأبه المتآمرون بهم، وحاولوا المضي في طريقهم فاعترضهم الخصيان. وهنا استل المتآمرون خناجرهم وأغمدوها في صدور من حاول اعتراض سبيلهم من الخصيان، فارتفع الصراخ والصياح.

واندفع المتآمرون إلى جناح الرجال. وكان الأخوان ماجي بداخله حينذاك، فلما سمعا الجلبة، خرجا على عجل لاستكشاف حقيقة الأمر فلما أدركا مدى الخطر المحدق بهما، حاولا الالتجاء إلى السلاح، ولكن داريوس عاجل الملك الدعي بطعنة قضت عليه في الحال، كما قتل زملاؤه أخاه. وأصيب اثنان من المتآمرين بجراح غير قاتلة.

وقطع المتآمرون رأس الملك الدعي ورأس أخيه، وخرجوا إلى بوابات القصر وهم يصيحون، وقد حملوا الرأسين معهما. وراحوا ينادون الفرس ويبلغونهم بما فعلاه.

وفي ذلك اليوم ثار غضب الشعب، وأخذ يفتلك بالماجوسيين حتى كاد يفنيهم عن بكرة أبيهم، لولا أن جاء الليل واختفى الماجوسيون في بيوتهم. وبعد انقضاء خمسة أيام، خفت حدة العاصفة. فعقد المتآمرون

اجتماعاً لدراسة الموقف، واختلفت آراؤهم. فقال فريق بضرورة ترك الحكم للشعب، وقال فريق آخر بضرورة حكم الصفوة، ونادى الفريق الثالث بضرورة استمرار الحكم الملكي.

وكان داريوس على رأس الفريق الثالث وراح كل فريق يحبذ رأيه بالأسانيد والحجج.

وأخيراً، وبعد مناقشات طويلة، انتصر رأي داريوس وفريقه.

وهناك برزت مشكلة: من يكون الملك الجديد.

* * *

وقرر المتآمرون أن يكون الملك من بينهم، واستقر رأيهم على أن يركبوا جيادهم في فجر اليوم التالي، ويخرجوا إلى ضاحية المدينة. ومن يصهل جواده أولا قبل شروق الشمس مباشرة يصبح هو الملك.

وكانت نتيجة هذا الإنفاق أن أصبح داريوس ملكا على الفرس.

وأعلن باقي المتآمرين الولاء للملك الجديد..

ووافق الشعب على أن يكون داريوس ملكا عليه.

وتبعاً لتقاليد الفرس تزوج داريوس من ابنتي سايروس، اتوسا وآرتيستون، كما تزوج بارمايس ابنة سمرديس بن سايروس، وابنة اوتانس أيضاً..

وعلى أثر ارتقاء داريوس العرش. قسم البلاد إلى عشرين قسما جعل لكل قسم منها حكومة عين لها حاكما. وحدد الجزية التي يجب على كل حكومة أن تدفعها له..

الفصل الخامس عشر

ثورة بابل

أوفد داريوس حملة بحرية بقيادة اوتانس للاستيلاء على جزيرة سامس.. وما كادت الحملة تبحر حتى ثارت مدينة بابل على حكم الفرس بعد أن اتخذت جميع الاستعدادات اللازمة للدفاع ومقاومة الحصار؛ ذلك لأن البابليين انتهزوا فرصة الاضطراب الذي عم فارس عند افتضاح أمر سمرديس ماجوس، وما أعقبه من انتخاب داريوس الملك وراحوا يرتبون ثورتهم بغير أن يفطن إليهم أحد.

وعندما حان وقت تمردهم علنا اتخذوا الإجراء التالي:- جمعوا أمهاتهم جميعاً في مكان واحد، واختار كل رجل المرأة التي يريدها من بين نساء أسرته وضموهن إلى الأمهات.

أما بقية النساء فأخذوهن إلى مكان آخر وقتلوهن. وكانت فكرة الإبقاء على النساء المختارات، استخدامهن لإعداد الخبز والطعام. أما سبب قتل الباقيات فهو رغبة الفرس في عدم استنزاف ما لديهم من طعام خشية أن يطول أمد الحصار.

وحينما علم داريوس بالأمر، حشد قواته كلها، وشن الحرب على

البابليين، وزحف على بابل رأساً حيث ضرب عليها الحصار. ولكن البابليين لم يأبهوا بهذا الحصار. وراحوا يتسلقون القباب المشيدة على أسوار مدينتهم ويسخرون من داريوس وجيشه الجرار، بل لقد صاح أحد البابليين قائلا: لماذا تجمدون هكذا أيها الفرس؟ لماذا لا تعودون إلى وطنكم؟ إنكم لن تستطيعوا الاستيلاء على مدينتنا إلا بعد أن تلد الفرس فلوا!. قالها الفارسي وهو يعتقد أن الفرس لا يمكن أن تلد فلوا.

ومر عام وسبعة شهور، ودب الإعياء في داريوس وجيشه. ومع أن الفرس بذلوا كل محاولة للاستيلاء على المدينة، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

وأخيراً، وفي الشهر العشرين من الحصار حدث شيء عجيب لزوبايرس بن مجابايزس وهو أحد سبعة المتآمرين. ذلك أن فرساً عنده ولد فلوا، وحينما سمع لزوبايرس بذلك ذهب للتأكد من الخبر بنفسه، فلما استوثق منه تكتم الخبر، وراح يفكر في الأمر.

وتذكر كلمات البابلي الساخرة. وخيل إليه أن الوقت قد حان للاستيلاء على مدينة بابل. وذهب إلى داريوس وسأله إن كان الاستيلاء على بابل يهمه كثيراً، فلما أجابه بالإيجاب، راح يفكر كيف يمكنه أن يفتح أبواب بابل للجيش الفارسي، وأخذ يستعرض جميع الوسائل ولكنه لم يجد بينها وسيلة واحدة تقربه من النجاح غير تشويه وجهه والتقدم إلى العدو. ولم يتوان هذا المغامر في تنفيذ خطته، فقطع أذنيه وجدع أنفه وحلق شعره،

وضرب نفسه حتى تورم لحمه. ثم ذهب للقاء داريوس.

وصعق الملك حينما رأى هذا النبيل بهذا الحال المفزع، فنزل من على عرشه وسأل زوبايرس بلهفة عمن شوه وجهه، ولماذا، وعندئذ أجاب الشاب ليس هناك إنسان، غيرك يا مولاي، يستطيع أن يمسني بسوء، فأنا الذي فعلت ذلك بنفسي. لقد شوهت وجهي لأنني لم أستطع احتمال سخرية الآشوريين من الفرس.

فصاح داريوس: يا لك من رجل تعس. كيف تظن أن تشويه وجهك يمكن أن يؤدي إلى سقوط بابل. إنني لا أتصور أن يبلغ بك الجنون هذا الحد المخيف.

فقال زوبايرس: سأقول لك يا مولاي ما قررت أن أفعله؛ لقد قررت أن تستولي على بابل ورسمت خطتي على هذا الأساس. فسافر إلى العدو وأنا على هذا الحال. وعندما أدخل المدينة سأقول لهم إنك أنت الذي أمرت بتشويه وجهي وتعذيبي على هذا النحو. وأظن أنهم سيصدقونني ويعهدون إلي بقيادة قواتهم. أما أنت فعليك أن تنتظر حتى اليوم العاشر بعد دخولي إلى المدينة، ثم تضع ألف جندي من جنودك الذين لا تهمك التضحية بهم، بلا سلاح، عند بوابة سميراميس؛ ثم انتظر بعد ذلك سبعة أيام، وضع ألف جندي آخرين عند بوابات نينوس. ثم انتظر عشرين يوماً بعد ذلك وضع أربعة آلاف جندي بالقرب من بوابات شالدين. ولكن حذار أن يكون أحد من جميع هذه القوات مسلحاً بغير السيف وبعد

انقضاء العشرين يوماً أصدر أمرك إلى الجيش بالهجوم على المدينة من جميع الجهات، وضع لي قوتين من الفرس، أحداهما عند بوابة بليان والأخرى عند بوابة سيسان لأنني أتوقع أن يقدم البابليون لي مفاتح مدينتهم بعد أن أحرز لهم انتصارات كثيرة. وبعدئذ سأستولي أنا وجيشك على المدينة.

وبعد أن أفضى زوبايرس بهذه التعليمات للملك ركض نحو بوابات المدينة، وهو يكثر من التطلع إلى الوراء شأن الهارب من شيء يخشاه. ورآه المراقبون البابليون الذين يقفون فوق القباب، فأسرع بعضهم بالنزول، وفتحوا أحد الأبواب فتحة صغيرة. وسألوه عمن يكون وعن السبب الذي حمله على المجيء. فأجاب بأن اسمه زوبايرس، وأنه فر من صفوف الفارسيين وجاء إليهم لاجئاً.

وعندما سمع حراس الباب ذلك، أخذوه من فورهم إلى قضاة المدينة. وهناك راح يندب سوء حظه ويقول لهم إن داريوس أساء معاملته بالطريقة التي يرونها لأنه نصحه برفع الحصار عن المدينة لأنه ليس هناك أي أمل في الاستيلاء عليها.. ثم مضى يقول: "ولقد جئت إليكم أيها البابليون لأثبت لكم الكسب العظيم الذي يمكنكم أن تحصلوا عليه، والخسارة الفادحة التي ستحل بداريوس. فإني أؤكد لكم أنه لن يفلت من القصاص بعد أن شوهني على النحو البغيض الذي ترونه".

وحينما رأى البابليون هذا الفارسي الكبير على هذا الحال المؤسف لم تساورهم الريبة في أمره، وأيقنوا أنه قال لهم الصدق، وأنه جاء حقاً ليعرض

عليهم صداقته ومعاونته، ومن ثم أبدوا استعدادهم لتقديم كل ما يطلبه، وحينما طلب أن يكون قائداً لجزء من جيشهم، أجابوه إلى طلبه، فمضى ينفذ الخطة التي اتفق عليها مع داريوس.

ففي اليوم العاشر من فراره، قاد الفرق التي عهد بقيادتها إليه إلى الخارج وحاصر الألف جندي فارسي الذين أرسلهم داريوس طبقاً للاتفاق الذي تم بينهما، وأبادهم عن آخرهم. وعندما تبين للبابليين أن أعماله تتسم بالجرأة ككلماته سروا أعظم السرور، ولم يضعوا أية قيود على تصرفاته. إلا أنه انتظر مرور الفترة التي اتفق عليها مع داريوس، وعندما حان الموعد المحدد انقض على الألفي جندي فارسي الذين كانوا خارج الأسوار، وأفناهم أيضا. وهنا راح جميع البابليون يثنون عليه. ثم عاد فانتظر مجيء الموعد الثالث، وهاجم بعده الأربعة آلاف جندي فارسي الذين كانوا خارج الأسوار، ونكل بهم. وبهذا تمت ثقة البابليين فيه، فأعطوه مفاتيح بوابات الأسوار، وعهدوا إليه بقيادة الجيش كله.

وطبقاً للخطة الموضوعة، شن داريوس هجوما على المدينة من جميع الجوانب، وبينما راح زوبايرس يتظاهر بمقاومة الهجوم الفارسي، فتح للفرس خلسة بوابتي سيسان وبليان فتدفق الفرس منهما، واستطاعوا الاستيلاء على المدينة.

وهكذا سقطت بابل للمرة الثانية. وبعد أن أصبح داريوس سيد المدينة هدم أسوارها وحطم بواباتها لأن سايروس لم يفعل ذلك حينما

استولى على المدينة. ثم اختار حوالي ثلاثة آلاف رجل من زعماء بابل وأمر بصلبهم، بينما سمح للباقين بالبقاء في المدينة؛ ولكي يحول دون زوال الجنس الآشوري، قدم لهم زوجات بدل النساء اللائي سبق للبابليين أن ذبحوهن.

وكرم داريوس قائده زوبايرس أعظم تكريم، فكان يقدم له كل عام أعظم الهدايا، كما كان الفرس يبجلونه أعظم تبجيل. واختاره داريوس رئيساً لحكومة بابل طول حياته، ولم يفرض عليه دفع أية جزية، كما أسبغ عليه كثيراً من النعم ودلائل التكريم.

الفصل السادس عشر

غزو داريوس لأسقوثيا

بعد سقوط بابل، قاد داريوس حملة لغزو أسقوثيا انتقاما من أهلها الذين غزوا ميديا في غابر الزمان بعد أن أنزلوا هزيمة ساحقة بأهلها، وأصبحوا سادة على شمال آسيا لفترة تزيد على ثمانية وعشرين عاما.

وعندما بدأ داريوس يعد حملته على استوثيا، أوفد عشرات الرسل إلى مختلف الأنحاء وهم مزودون بتعليمات الملك، فكان على البعض تزويد الجيش بالقوات، وعلى البعض الآخر تزويده بالسفن، بينما كان على غيرهم العمل على إقامة معابر للجيش على البسفور. وفي تلك الأثناء راح ارتابانوس بن هايستاسبس وشقيق داريوس يلح على الملك لكي يتنحى عن هذه الحملة مبينا له أنه من الصعوبة بمكان مهاجمه اسقوثيا، وبرغم صواب نصيحة ارتابانوس إلا أنه فشل في إقناع داريوس. ومن ثم كف عن إسداء النصح.

وعندما أتم داريوس استعداداته، خرج بجيشه من سوسا.

وفي تلك الأثناء جاء رجل فارسي اسمه أوبازوس، وكان أباً لثلاثة شبان انضموا جميعاً إلى الجيش، وتضرع لداريوس لكي يسمح ببقاء أحد

أبنائه معه، فأجاب داريوس أنه سيعفي أولاد الرجل الثلاثة من الذهاب من الجيش، فكاد الرجل يطير من الفرح، ولكن داريوس أمر بقتل الأبناء الثلاثة. وهذا خلفهم داريوس ولكن بعد أن حرمهم من الحياة.

وعندما وصل جيش داريوس إلى أراضي الكلدانيين على شواطئ البسفور حيث أقيم المعبر، ركب داريوس سفينة وذهب إلى جزر سيانيان التي يقول اليونان أنها كانت عائمة في أحد الأيام، وبعد أن زار داريوس المنطقة وفحصها، عاد أدراجه إلى موضع المعبر الذي أنشأه له سامي اسمه ماندوكلس، وكان جيشه قد التأم في ذلك الحين، وبلغ- بدون القوات البحرية- سبعمائة ألف مقاتل بما فيهم الخيالة. أما الأسطول فكان مكوناً من ستمائة سفينة.

وقد سر داريوس أيما سرور بالمعبر الذي أقيم على مضيق البسفور، ولهذا فإنه لم يمنح ماندروكلس الجوائز المعتادة، ولكنه منحه عشرة من كل جائزة.

وعبر داريوس القنطرة مع جيشه إلى أوروبا، بينما أمر الأيونيين بدخول بونتاس والإبحار إلى مدخل نهر ايستر حيث أمرهم بإنشاء قنطرة على المجرى وانتظار وصوله، وكان الأيونيون والأيوليان هما الشعبان اللذان شكل من رجالهما الجزء الأكبر من رجال الأسطول، ومن ثم فبعد أن احتل الأسطول جزر سيانيان استمر في الإبحار إلى نهر ايستر فلما وصل إليه استمر يتقدم إلى حيث يتفرع النهر. وفي تلك الأثناء كان داريوس قد عبر

البسفور بواسطة المعبر الذي شيد فوقه، وزحف عبر ثريث، حيث ضرب معسكره، وأقام ثلاثة أيام.

واستأنف داريوس زحفه بعد ذلك إلى نهر إيستر، وبعد أن عبر جيشه النهر فوق المعبر الذي أقامه الأيونيون، أمرهم بتدمير هذا المعبر، ولكن قائد الأسطول نصحه بالإبقاء على المعبر وحراسته لأن الجيش سيحتاج إليه في حالتي الفوز والهزيمة، فهو سيحتاج إليه في الحالة الأولى عند العودة إلى الوطن، وسيحتاج إليه في الحالة الثانية كوسيلة للتقهقر.

وسر داريوس بهذه النصيحة، وأمر بإبقاء المعبر.

* * *

حينما سمع الأسقوثيون بزحف داريوس، أخذوا يتدبرون أمرهم.

كانوا يعلمون أنهم ليسوا على درجة من القوة تمكنهم من الصمود أمام جيش داريوس في قتال مكشوف؛ ومن ثم بعثوا الرسل إلى الشعوب المجاورة التي كان ملوكها قد تقابلوا معاً وأخذوا يتشاورون ماذا يفعلون إزاء زحف هذا الجيش الجرار. وكان الملوك الذين اجتمعوا هم ملوك توري، واجثايرس، وينوري، وأندروفاجي، وملانشلاني، وجلوني وبودنين، وسايوروماتي. وعندما أدخل رسل اسقوثيا على ملوك هذه الشعوب الذين كانوا يعقدون حينئذ اجتماعاً للتشاور قالوا لهم أن الفرس أقاموا معبرا فوق مضيق البسفور بعد أن أخضعوا بقية شعوب القارة الأخرى. وعبروا إلى

قارة أوربا حيث اخضعوا الثراسيين، وأنهم يقيمون الآن قنطرة على نهر إيستر وغايتهم من ذلك الاستيلاء على أوربا كلها.

وبعد أن سمع الملوك المجتمعون ما قاله رسل الأسقوثيين، استأنفوا التشاور. وأخيراً انقسمت آراؤهم. فقد اتفقت كلمة ملوك جلوني، وبوديني، وسايوروماتي على تقديم المعونة للاسقوثيين؛ أما باقي الملوك فأجابوا على رسالة الاسقوثيين بقولهم: لو لم تكونوا البادئين بمعاداة الفرس وشن الحرب عليهم، لأيقنا أن الرجاء الذي تتقدمون به إلينا عادل، ولقبلنا هذا الرجاء وانضممنا لكم في القتال. ولكنكم غزوتم أرض الفرس من قبل بغير أن تشاورونا في الأمر، وظللتم تحكمونهم سنوات طويلة، ومن ثم فقد جاءوا للثأر منكم ونحن لم نسيء إلى هؤلاء الرجال في الحرب الماضية، ولن نكون البادئين بارتكاب الخطأ الآن، فإذا غزوا أرضنا وبدأوا يعتدون علينا فلن نسمح لهم بذلك. وفيما عدا ذلك سنظل في بلادنا لأننا نعتقد أن الفرس لم يجيئوا لمهاجمتنا، وإنما جاءوا لمعاقبة من سبق لهم أن أخطأوا في حقهم.

وعندما وصل هذا الرد إلى الأسقوثيين قرروا عدم الاشتباك في أية معارك حاسمة مع العدو والالتجاء إلى خطة التقهقر أمامه ومعهم قطعانهم على أن يردموا جميع الآبار وينابيع الماء عند تقهقرهم ويتركوا الأرض خالية من المراعي..

* * *

عندما استقر رأي الاسقوثيين على هذه الإجراءات خرجوا لملاقاة داريوس بعد أن بعثوا أمامهم قوات استكشاف مكونة من أسرع خيالتهم، أما المركبات التي كانت نساؤهم وأطفالهم يعيشون فيها، كذا جميع ماشيتهم، فيما عدا ما كانوا بحاجة إليه منها لطعامهم، فقد سبقتهم جميعاً في تقهقرهم بعد أن صدرت الأوامر للمهيمنين على هذه المركبات بالاستمرار في السير بدون تغيير خطة نحو الشمال.

وتبين لقوات استكشاف الايقويثين أن جيش الفرس قد تقدم بمسيرة ثلاثة أيام من نهر إيستر، وأنهم يضربون معسكرهم من حين لآخر ويدمرون كل ما أنتجته الأرض. وما كاد الفرس يرون خياله الاسقوثيين حتى تتبعوا أثرهم بينما أخذ العدو يتراجع أمامهم.

وعندما وصل داريوس إلى الصحراء كف عن مطاردة العدو، وأوقف جيشه عند نهر أداروس. وهناك شيد ثماني قلاع كبيرة تبعد كل منها عن الأخرى ثمانية فورولنج، وبينما كان منهمكا في بناء هذه القلاع قام الاسقوثيون الذين كان يطاردهم بحركة التفاف كبيرة فوق الأراضي المرتفعة وعادوا لدخول اسقوثيا. وعندما اختفوا تماماً، ولم يعد داريوس يرى لهم أثراً، لم يستكمل بناء القلاع، وعاد فانطلق غرباً، كان يتخيل أن الاسقوثيين الذين رآهم هم شعب اسقوثيا كله وأنهم لاذوا بالفرار في هذا الاتجاه.

وأسرع داريوس في زحفه، واقتحم اسقوثيا، وهناك التحم في القتال مع فرقتين من جيش أسقوثيا وراح يطاردهما. ولكن الفرقتين الاسقوثيتين لزما خطة التراجع، وجعلا المسافة بينهما وبين جيش داريوس مسيرة يوم كامل. أما داريوس فراح يتتبعهما بقوة، وهما يستدرجاه إلى أراضي الشعوب التي رفضت أن تنضم إلى أسقوثيا في قتال الفرس، فعانت هذه الشعوب الأمرين، إذ هاجمها الأسقوثيون أولا، ثم الفرس.. فلما اقترب الفريقان من أراضي شعب أجاسايارثي هددهما زعماؤه بامتشاق الحسام للدفاع عن أراضيهم، وعندئذ اضطر الأسقوثيون إلى الابتعاد عن أراضي أجاسايارثي، وطال أمد المطاردة وخيل أنها لن تنتهي؛ وأخيراً أوفد داريوس رسولا من الخيالة إلى ايدانتايراثوس ملك الأسقوثيين بالرسالة التالية: "أيها الرجل الغريب.. لماذا تصر على الفرار من أمامي بينما يمكنك أن تفعل أحد أمرين بسهولة؟ إذا كنت تعتقد أنك أهل لملاقاتي ومقاومة جيوشي، فكف عن هذا التجوال. وتعال إلى ودعنا نشتبك في القتال. أما إذا كنت ترهب قوتي وبأسي، فيحسن بك أيضاً أن تكف عن الفرار، ويكفي أن تقدم لمولاك الأرض والماء وتأتي للتشاور".

وأجاب ملك الأسقوثيين على هذه الرسالة بالرسالة التالية: تلك هي طريقتي أيها الفارس. فأنا لا أرهب الرجال ولا أهرب منهم، ولم أفعل ذلك في الماضي، ولست أفعله الآن، وليس هناك شيء غريب أو جديد فيما أفعله، فالواقع أنني أسير الآن على النمط الذي انتهجه دائماً حتى في أوقات السلم. وسأحدثك الآن عن سبب عدم اشتباكي معك في القتال. إننا معشر الأسقوثيين لا نملك مدنا أو أراضي مزروعة نخاف عليها فيدفعنا

هذا الخوف إلى الإسراع بخوض المعركة معك.. إذا كنت راغباً في الالتحام بنا سريعاً فأضع إلي. هناك مقابر كثيرة دفن فيها آباؤنا، فابحث عنها وحاول التورط مع الجثث التي بها وعندئذ سترى هل ستنبري لمقاتلك أم لا، فإلى ذلك الحين لن نشتبك معك في القتال إلا حينما يحلو لنا ذلك.. تلك هي إجابتي على تحديك لنا بالقتال أما أنت فلن تكون يوما سيدي. وأما الجزية التي تطلبها فلن تحصل عليها مني، لأنني أنا الذي سأحصل على الجزية منك، وأخيراً دعني أقول لك يا من تطلق على نفسك لقب "سيد" (اذهب وابك)..

وفي تلك الأثناء قرر الاسقوثيون الكف عن محاورة الفرس في شتى أنحاء بلادهم، والاكتفاء بالانقضاض عليهم كلما جلس الجنود لتناول طعامهم. وبالأخص لأنهم جميعاً فرسان يستطيعون (الضرب والجرب) بسهولة.

وفعلا نفذ الاسقوثيون هذه الخطة، فكانوا ينقضون على الفرس وهم جلوس يتناولون طعامهم، فيشيعون بينهم الفوضى، ويقتلون منهم من يقتلون، وقبل أن يتمكن الفرس من امتشاق الحسام يكون الفرسان الاسقرثيون قد اختفوا عن الانتظار.

وعندما تبين للاستوثيين أن الفرس بدأوا يفزعون، بدأوا يتخذون خطوات فعالة لحفزهم على عدم الجلاء عن اسقوثيا حتى يمكنهم إصابتهم بأضرار أشد جسامة حينما تبدأ مؤنهم في التناقص والتلاشي، ولهذا عمدوا

إلى ترك بعض ماشيتهم في المراعي، ولانسحاب بعيداً حتى إذا ما جاء الفرس للاستيلاء عليها، انقضوا عليهم بغتة كالإعصار وأعملوا فيهم القتل.

ولقد كرر الاسقوثيون هذه الخدمة حتى بدأ صدر داريوس بضيق وإذا أدرك أمراء اسقوثيا ذلك، بعثوا برسول إلى معسكر الفرس ليقدم الهدايا التالية لداريوس: طائراً، وجرذا، وضفدعة، وخمسة سهام. وسأل الفرس الرسول في معنى هذه الهدايا ولكنه قال أن الأوامر التي لديه تقضي بتسليم هذه الهدايا فقط والعودة بأقصى سرعة، فإذا كان الفرس أذكياء فإن في استطاعتهم أن يستشفوا معنى الهدايا.

وعقد كبار زعماء الفرس اجتماعاً وراحوا يتشاورون في الأمر.

قال داريوس أنه يعتقد أن معنى هذه الهدايا أن الاسقوثيين يعتزمون تسليم أنفسهم له، لأن الجرذ يعيش في الأرض ويتناول نفس الطعام الذي يتناوله الإنسان، بينما تقضي الضفدعة حياتها كلها في الماء، ويشبه الطير الجواد شبهاً كبيراً. أما السهام فقد تعني تسليم جيشهم.. ولكن جوبراياس، وهو أحد السبعة الذين تآمروا على ماجوس، عارض رأي داريوس وقال له إنه يرى أن معنى هذه الهدايا كالآتي: ما لم تتحولوا، معشر الفرس، إلى طيور تستطيع الطيران، أو تصبحوا جزدانا تحفر لها جحورا في الأرض تهربون بداخلها، أو أن تنقلبوا ضفادع تختفي تحت الماء. فإنكم لن تستطيعوا الإفلات من هذه الأرض. ولكنكم سوف تموتون بسهامها".

التراجع من اسقوثيا

بعد أن أرسل الاسقوثيون هداياهم إلى الفرس. بدأ جيشهم ينتظم في صفوف قتال في مواجهة الفرس، وخيل أنهم يستعدون للالتحام معهم في القتال، إلا أنه حدث في تلك اللحظة أن انطلق أرنب بري كبير في المسافة التي تفصل بين الجيشين. وما كاد بعض الاسقوثيين يرونه، حتى اندفعوا لمطاردته. فأحدث ذلك جلبة وضوضاء عاليتين، وعندما سمع داريوس الجلبة. استفسر عن سببها، فقيل له أن الجيش الاسقوثي كله مهمك في مطاردة أرنب بري. فتحول إلى من كانوا معه من قواده وقال لهم: "إن هؤلاء القوم يحتقروننا تماماً، وعندي أن تفسير جوبراياس لمعنى الهدايا صحيح. ولهذا أرى أن الوقت قد حان لوضع خطة حكيمة تمكننا من العودة إلى وطننا سالمين". وسر جوبراياس لما طرأ على موقف داريوس من تغيير. وقال له: "لقد كنت واثقاً يا مولاي إننا قادمون إلى سباق غير عملي. وها أنت ذا ترى أنهم يحاوروننا ويتلاعبون بنا. ومن ثم فإن نصيحتي هي أنه، عندما يرخى الليل سدو له نترك خلفنا الجنود المرضى ومن لا فائدة فيهم، ومعهم الحمير لتحدث ضوضاء توهم العدد بأننا لا نزال في معسكرنا، ثم ننسحب بالجيش من هنا قبل أن يتمكن العدو من سبقنا إلى نهر إيستر وتدمير المعبر، أو يضيق الايونيون بتأخرنا فيدمرون القنطرة فيؤدي ذلك إلى هلاكنا.

وعندما جاء الليل عمل داريوس بنصيحة جوبراياس؛ فبعد أن ترك الجنود المرضى في المعسكر وكذلك الذين لن يضيره التخلي عنهم ومعهم الحمير أمر بإشعال نار المعسكر كالمعتاد، وطلب من الجنود الباقين حراسة المعسكر قائلا لهم أنه ذاهب ببقية الجيش للانقضاض على الاسقوثيين والالتحام معهم في معركة فاصلة..

وخرج داريوس بجيشه من المعسكر وزحف على عجل نحو نهر إيستر. وعندما شعرت الحمير برحيل الجيش بدأت تنهق بصوت ملأ الدنيا صخباً. وحينما سمع الاسقوثيون هذا النهيق، ورأوا نيران المعسكر اطمأنوا إلى وجود الفرس في مكانهم.

إلا أنه ما كاد الفجر ينبثق حتى أيقن الجنود الذين خلفهم داريوس خلفه أنهم خدعوا فخرجوا من معسكرهم وتقدموا نحو الاسقوثيين وهم يمدون أيديهم أمامهم ويمطرون داريوس بوابل من اللعنات.

وما كاد العدو يعرف ما حدث حتى خف لمطاردة جيش الفرس..

ولكن هيهات..

فقد استطاع الفرس أن يصلوا إلى القنطرة بسلام، فعبروها ثم دمروها بعدهم.

وركب الجيش الفارسي سفنه، وكر عائداً إلى بلاده بعد هذه المغامرة الفاشلة...

الفهرس

الفصل الأول : أسطورة أيو وجايجس.................... ٥

الفصل الثاني: أسطورة آريون........................ ١٠

الفصل الثالث: أسطورة سولون....................... ١٢

الفصل الرابع: قصة ادراستوس....................... ١٧

الفصل الخامس: كرويسوس ٢٠

الفصل السادس: أسطورة سايروس.................... ٢٧

الفصل السابع: ثورة سرديس.......................... ٣٩

الفصل الثامن: سقوط بابل............................ ٤٢

الفصل التاسع: مصر ٤٦

الفصل العاشر: قصة رعمسيس........................ ٥٢

الفصل الحادي عشر: قمبيز........................... ٥٦

الفصل الثاني عشر: أعمال قمبيز..................... ٦١

الفصل الثالث عشر: موت قمبيز...................... ٦٨

الفصل الرابع عشر: كيف ارتقى داريوس العرش.......... ٧١

الفصل الخامس عشر: ثورة بابل ٧٨

الفصل السادس عشر: غزو داريوس لأسقوثيا ٨٤

الخاتمة: التراجع من اسقوثيا ٩٢